رواية لليافعين

عباس سليمان

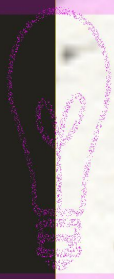

كم كنت غبيا

تصميم و إخراج إلكتروني
صالح مبروكي

نسخة إلكترونية

Révisé
25/03/2021 | 20:33
jeudi 25 mars 2021
صالح مبروكي
SALEH MABROUKI

عبّاس سليمان

كَمْ كُنْتُ غَبِيًّا

روايـــــــــة لِلأَطْـفَـــــــالِ اليَـافِـعِيـــــــنَ

- الكتاب: كم كنت غبيّا
- الكاتب: عبّاس سليمان
- الجنس: رواية للبافعين

1

لاَ أَذْكُرُ كَيْفَ جَرَتِ الحَادِثَةُ بِالضَّبْطِ.
لاَ أَدْرِي كَيْفَ فَعَلْتُ مَا فَعَلَتُ وَانْدَفَعْتُ كُلَّ ذَلِكَ الانْدفاعِ وَارْتَكَبَتُ مَا ارْتَكَبَتُ مِنْ تَهَوُّرٍ.
كُنْتُ فِي سَنَتِي الثَّانَوِيَّةِ الأُولَى وَكَانَ عُمْرِي فِي حُدودِ السِّتَّة عَشَرَ عَامًا.
لَمْ أَكُنْ تِلْميذًا نَابِهًا وَلاَ كُنْتُ أَيْضًا تِلْميذًا خَامِلاً كَسُولاً كَارِهًا لِلدَّرْسِ وَلِلأَسَاتِذَةِ.
كُنْتُ تِلْميذًا عَادِيًّا كَجُلِّ التَّلَامِيذِ.
أَذْكُرُ أَنَّنَا كُنّا فِي الْفَصْلِ، كُنَّا فِي حِصَّةِ أُسْتَاذِ الْعَرَبِيَّةِ.
ذَلِكَ الأُسْتَاذُ أَذْكُرُهُ جَيِّدًا ، وَلَعَلَّ تَفَاصِيلَهُ لَنْ تَمَّحِيَ مِنْ مُخَيِّلَتِي أَبَدًا.

كانَ طَوِيلَ الْقَامَةِ فَارِغَ الْبَدَنِ غَائِرَ الْعَيْنَيْنِ كَبِيرَ الرَّأْسِ مُقَوَّسَ الْكَتِفَيْنِ.

دخَلْنَا الْقَاعَةَ وَرَتَّبْنَا أَدَوَاتِنا وَانْتَبَهْنَا إِلَيْهِ.

لاَ أَدْرِي لِمَاذَا اخْتَارَنِي مِنْ بَيْنِ ثَلاثِينَ تِلْمِيذًا.

قَالَ لِي:

- عُلْوانُ، قِفْ.

وَقَفْتُ.

لا أَذْكُرُ كَيْف وقفتُ ولكنّهُ نَهَرَني قَائلاً:

- لِمَاذا تنهضُ مُتباطئًا؟ أَمَرْتُكَ بالوُقوفِ فَقِفْ سَرِيعًا.

لَمْ أَرُدَّ بشَيءٍ.

كَتَمْتُ غيظي في صَدْري.

نَهَرَني ثَانيةً:

- اِجْلسْ وأَعِد الوُقُوفَ.

تَرَدَّدَتُ، أَحْسَسْتُ بِكُلِّ الْعُيُونِ تَتَفَحَّصُنِي وَتُرَاقِبُ وَجْهِي وَتُتَابِعُ حَرَكَاتِي وَسَكَنَاتِي.

ظَلَّ الْأُسْتَاذُ صَامِتًا يَنْظُرُ إِلَيَّ بِعَيْنَيْنِ حَانِقَتَيْنِ.
اِمْتَثَلْتُ لِأَمْرِهِ وَجَلَسْتُ، ثُمَّ عَاوَدَتُ الْوُقُوفَ.
سَمِعْتُ أَصْوَاتًا كَالضَّحِكِ تَنْبَعِثُ مِنْ أَرْكَانِ الْفَصْلِ فَلَمْ أُعِرْهَا اِهْتِمَامًا.
قُلْتُ: سَيَتَكَفَّلُ بِهَا الْأُسْتَاذُ.
وَلَكِنَّ الْأُسْتَاذَ لَمْ يَنْهَرْ أَصْحَابَهَا كَأَنَّهُ يَهْزَأُ مِنِّي مَعَهُمْ.
قَالَ لِي:
- هات بَيْتًا عَلَى وَزْنِ الْمُتَقَارِبِ.
ظَلَلْتُ بُرْهَةً أَفَكِّرُ، ثُمَّ قُلْتُ:
"لَكِ يا مُنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مُنَازِلُ"
وَلَمْ تُسْعِفْنِي ذَاكِرَتِي بِعَجُزِ الْبَيْتِ.
ظَلَلْتُ أُهَمْهِمُ وَأَطْرُقُ جَبِينِي وَأَنْقُرُ عَلَى الطَّاوِلَةِ وَأَعَضُّ عَلَى شَفَتِي قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ الْأُسْتَاذَ يَقُولُ مُتَهَكِّمًا:
- وَقَفَ حِمَارُ الشَّيْخِ...، وَأَسْمَعَ الْفَصْلَ يَضِجُّ بِالضَّحِكِ.

قَفَزْتُ مِنْ مَقْعَدِي، لاَ أَدْرِي كَيْفَ قَفَزْتُ، وَارْتَمَيْتُ عَلَى الأُسْتَاذِ، أَمْسَكْتُهُ مِنْ طرفَيْ منديله وَأَخَذْتُ أَرُجُّهُ رَجًّا فيما هو مبهوتٌ تماما... عَلاَ صياح زُمَلائي وضجيجُهمْ فحرّرتُ منديلَ الأستاذ من يديّ الاثنتيْن ولكنّه لم يتماسكْ وهوى أرضا.

وفيما ترك المقاعدَ أكثرُ من نصف الفصل لإنقاذ الأستاذ، ظللت أُرْغِي وَأردّدُ:

- لَسْتُ حِمَارًا، ولا حقّ لك في أن تُهينني.

وَكَثُرَ الضَّجِيجُ وَزَادَ الْهَرَجُ

وَبَلَغَ الْأَمْرُ مَسَامِعَ الْإِدَارَةِ وَالْأَقْسَامَ الأُخْرَى وَخَرَجَ التَّلاَمِيذُ مِنْ فُصُولِهِمْ وَوَجَدَتُ نَفْسي مُحَاصَرًا بَيْنَ أَرْبَعَةِ قِيِّمينَ وَالْمُدِيرِ وَأَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ أَسَاتِذَةٍ.

وَفِي حِينِ شَرَعَ يَعْتَنِي بِالأُسْتَاذِ مُمَرِّضُ الْمَعْهَدِ وَزُمَلاءُ لَهُ، جُرِرْتُ إِلَى مَكْتَبِ الْمُدِيرِ لأَخْضَعَ لِجَوْلَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الأَسْئِلَةِ وَالأَجْوِبَةِ.

رَوَيْتُ لَهُمِ الْحِكَايَةَ مِنْ أَوَّلِها ، مِنْ أَوَّلِ مَا طَلَبِ مَنِّي الأُسْتَاذُ الوقوفَ إِلَى حِينِ نَعَتَنِي بِالْحِمَارِ ثمَّ هُجُومِي عَلَيْهِ.

الحقَّ أَنِّي لَمْ أُنْكِرْ مَا أَقدَمْتُ عَلَيْهِ.

وَبَلَغَ الْخَبَرُ وَالِدِي فَتَرَكَ مَتْجَرَهُ وَطَارَ إِليَّ.

حَسِبْتُهُ سيكونُ مَعي وَلكِنَّهُ نَهَرَني وَوَبَّخَنِي أَمَامَ طَاقَمِ الْإِدَارَةِ وَأَلَحَّ على الْمُدِيرِ ليتّخذَ ضِدِّي مَا يَرَاهُ مُنَاسِبًا من عقوباتٍ.

وَحُرِمْتُ مِن ارْتِياد الْمَعْهَدِ إِلَى حِينِ انْعِقَادِ مَجْلِسِ التَّأْدِيبِ الَّذِي لَمْ يَتَأَخَّرْ كَثِيرًا. أيَّامَهَا ، أَحْسَسْتُ بِثِقَل الْوَقْتِ، فَلاَ شَيءَ لَدَيّ أَفعَلُهُ وَلاَ زَميلَ دِرَاسَةٍ أُجَالَسُهُ وَلاَ وَاجِبَ أَقْوَمُ بِهِ.

كَرِهتُ نَفسِي وَأَحْسَسْتُ أَنَّ الْكُلّ يَكْرهنِي.

قَالَتْ لِي أُمِّي بَاكِيَةً:

- كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَتَعَقَّلَ يَا عُلوان.

هَلْ هُنَاكَ عَاقِلٌ يَفْعَلُ مَا فَعَلْتَ؟

فَقُلْتُ لَهَا:

- وَهَلْ هُنَاكَ أُسْتَاذٌ يَنَعَتُ تِلْمِيذَهُ بـ"الْحِمَارِ الْوَاقِف فِي الْعَقَبَةِ" ؟

- ولكِنَّكَ سَتَكُونُ الْخَاسِرَ يَا حَبِيبِي.

- فَلْيَكُنْ.

لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا أَنْ أَكْتُمَ غَيْظِي أَكْثَرَ مِمَّا كَتَمْتُ.

وَقَالَ لِي أَبِي وَوَجْهُهُ مُحْمَرٌّ مِنَ الْغَضَبِ:

- سَتَخْسَرُ كُلَّ شَيْءٍ.

لَطَالَمَا حَذَّرْتُكَ مِنَ انْفِعَالاَتِكَ وَانْدِفَاعِكَ وَتَهَوُّرِكَ فَلَمْ تُبَالِ بِنَصَائِحِي.

فَلَمْ أَرُدَّ عَلَيْهِ.

وَجَاءَ مِيعَادُ مَجْلِسِ التَّأْدِيبِ.

كَانَتْ تُهْمَتِي وَاضِحَةً لاَ اخْتِلاَفَ حوْلَهَا وَلاَ غُبَارَ عَلَيْهَا وَلاَ مَهَرَبَ مِنْهَا: الاعْتِدَاءُ بالقوْل وبالفعْل عَلَى أُسْتَاذِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَثْنَاءَ الدَّرْسِ.

تَكَلَّمَ الْمُدِيرُ وَتَكَلَّمَ مَنْ يَنُوبُ الْأُسْتَاذَ الْمُتضرِّرَ وَعُضْوَانِ فِي الْمَجْلِسِ يُمَثِّلانِ التَّلاَمِيذَ، ثُمَّ سُمِحَ لي بالدِّفَاعِ. أَعَدْتُ عَلَى مَسَامِعِهِمْ الْحِكَايَةَ وَشَدَّدْتُ عَلَى أَنَّ الْأُسْتَاذَ اسْتَفَزَّنِي وَأَنَّهُ مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ وَعَلَى أَنَّهُ دَفَعَنِي دَفْعًا إِلَى قَوْلِ مَا قُلْتُ وَارْتِكَابِ مَا ارْتَكَبْتُ.

وَلَكِنَّ رَدَّ الْمَجْلِسِ كَانَ وَاضِحًا:

- لَيْسَ مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَعْتَدِيَ عَلَيْهِ حَتَّى لوْ أساء إليك.

كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفَعَ تَذَمُّرَكَ إِلَى الإِدارَةِ لاَ أَنْ تُهِينَ أُسْتَاذَكَ فِي الْفَصْلِ أَمَامَ تَلاَمِيذِهِ.

هَذِهِ سَابِقَةٌ خَطِرَةٌ ينْبغي أَنْ تُعاقَبَ عَلَيْهَا حَتَّى تَكُونَ عِبْرَةً لِنفسِكَ وَلِغَيْرِكَ.

وَلَمْ يَصْدِمْنِي قَرَارُ الرَّفْتِ النِّهَائِيِّ مِنَ الْمَعْهَدِ وَمِنْ جَمِيعِ الْمَعَاهِدِ، فَقَدْ كُنْتُ تَقْرِيبًا أَتَوَقَّعُهُ.

وَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ، يَوْمُ الْمُحَاكَمَةِ،آخِرَ يَوْمٍ لِي فِي مَعْهَدِي.

كَانَتْ أُسْرَتُنَا وَفِيرَةَ الْعَدَدِ.

أَبِي وَأُمِّي وأَنَا وَسِتَّةُ أَبْنَاءٍ بَيْنَ أَوْلَادٍ وَبَنَاتٍ.

وَلَمْ يَكُنْ لَنَا مِنْ مَصْدَرِ عَيشٍ غَيْرَ دُكَّانِ الْمَوَادِّ الغذائيّة الَّذِي وَرِثَهُ أبي عنْ أبيهِ وبضعَ زيتوناتٍ في رِيفِنَا الْبَعِيدِ.

تَرَكَنِي أَبِي آكُلُ نَدَمِي وَجَارَتْهُ أُمِّي فِي لا مُبَالاَتِهُ بِي أيَّامًا ثَمَّ سَمِعْتُها تَقُولُ لَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ:

- خُذْ عُلُوانَ مَعَكَ إِلَى الْمَتْجَرِ. خُذهُ مَعَكَ يُسَاعِدْكَ فِي تَنْظِيمِ السِّلَعِ وَفِي العنايَة بالحُرفاءِ وَيَتَعَلَّمْ مِنْكَ أُصولَ التِّجَارَةِ وَكَيْفَ يَتَعَامَلُ مَعَ النَّاسِ.

ثَارَ أَبِي عَلَى أُمِّي وَاتَّهَمَهَا بِالْوُقُوفِ إِلَى جَانِبِي ظَالِمًا وَمَظْلُومًا وَهَدَّدَهَا بِأَنَّ هَذَا الْوُقُوفَ سَيُفْسِدُنِي إِنْ كُنْتُ مَازِلْتُ بَعْدُ صَالِحًا مُسْتَقِيمًا.

تَرْكَتْهُ أُمِّيٌّ يُفَجِّرُ فِيهَا غَضَبَهُ ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِ تَتَرَجَّاهُ أَنْ يَمْنَحَنِي فُرْصَةً أَخِيرَةً.

طَالَ الْحِوَارُ وَبَدَا لِي فِي آخره أَنَّ الغضَبَ سكتَ عنْ أَبِي وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لِأُمِّي:

- دَعِيهِ يَجْتَرُّ نَدَمَهُ أَيَّامًا أُخْرَى.

2

أدْرَكْتُ أنّي سَأُصبحُ سَجينَ المتْجَرِ وأَنَّ وقْتي كلَّهُ سيُصبحُ بينَ العمَلِ نهارًا والنّومِ ليلاً، فقرّرتُ أنْ أنعمَ قليلاً بِحرّيتي قبلَ أنْ أدخلَ سوقَ الشُّغلِ، ولكنَّ قرَاري ذاك كلّفني كَثيرًا.

قالتْ لِي أُمّي وأَنَا أتْرُكُ البيتَ:

- عُلوان، خَالتُكَ تنتظركَ في مكْتَبِها بِالمُستشفَى لتسلّمكَ دواءً لِي .

أطعتُ أمّي وبدأتُ جَوْلتي بالمُستشفَى. سَألتُ عنْ خَالتي فأَرْشَدوني إليْها.

احْتضَنَتْنِي وَقَبّلتْني ولاَمَتْنِي كَثيرا علَى صَنِيعِي وقالتْ لِي:

- اِبْقَ هُنا فِي مَكْتبِي رَيْثَما أَعودُ إليكَ.

امتدّتْ يَدِي إِلى دُرْجِ مَكْتبها فَألْفَيْتُ فيهِ كُنَّشَ رُخَصٍ مَرَضيّةٍ عَلَيْهِ الخَتْمُ ولاَ يَنْقصُهُ غيرُ إمْضاءِ الطّبيبِ.

لاَ أَدْرِي كيفَ حَدّثتْنِي نَفْسِي أنْ أَدُسّهُ فِي جَيْبِي.

تظاهرتُ بأنِّي أَنْتظرُهَا عَلى البابِ، ثمَّ تسلّمتُ الدّواءَ ودَسَسْتُهُ في جَيْبِي الثَّانِي.

قادتْنِي قَدَمايَ إلى مُحيطِ مَعْهدي الذي طُرِدتُ منهُ ورآني أصْدقَاءٌ لي فَجاؤوا يسلّمونَ عليَّ.

اخترْنَا شَجرةً ظليلةً وَبَدَأْنا نتبادلُ النُّكتَ والحِكاياتِ.

تكلّمتُ كثيرًا وضَحكتُ كثيرًا ولاطفْتُهمْ ومَازحْتهمْ حتَّى لاَ يَظنّنَّ أحدٌ أنّني نادِمٌ عمَّا فعلتُ وأنَّ الأُستاذَ هَزَمَني إذْ طرَدَنِي.

حدّثتُهمْ كيفَ أصبحتُ حُرًّا طليقًا، وكنتُ مُكبَّلاً بأوقَاتِ الذّهَابِ والإيَّاب والمُراجَعةِ والفُروضِ، ثمّ

أخْبرتهمْ أنّني علَى ذمّةِ كلِّ منْ يُحبُّ منْهمْ أنْ يَتغيّبَ غِيابًا شرْعيًّا.

سلّمتُهمْ بعضَ الرُّخصِ المَرَضيّةِ بعدَ أنْ أمْضيتُها بنفْسِي وتَرَكتُ لهمْ أمرَ تحْريرِ الاسْمِ والتّاريخِ وَوَعدتهُمْ أن أعودَ إليهمْ.

ولمْ يَمضِ أُسبوعٌ حتّى نَفَدَتْ كلُّ الرُّخصِ وتمتّعَ أصْحابِي بأيّامٍ متفرّقَةٍ منَ الغيابِ، ولكنَّ الإدارةَ تفطَّنتْ إلَى تِلْكَ الشّهاداتِ واستدْعتْ كلَّ الذينَ تغيّبُوا.

قالَ لهُمْ المُديرُ:

- لاَ عليكُمْ، دُلّونِي علَى منْ سلَّمكُمْ الشّهاداتِ وسَأُخْلي سَبيلكُمْ. لنْ أعَاقبكُمْ ولنْ أُخبرَ أوْليَاءكُمْ. كُونُوا رجَالاً ولاَ تتَسَتَّروا عليهِ، يَكْفيني أنْ تكُونوا رِجالاً، لاَ حاجةَ لي بمُعاقبتكُمْ.

بَلغَني الخبرُ فخِفْتُ خوفًا شديدًا ولَزِمتُ البيتَ لا أَبْرحُهُ إلَى أنْ جاءَ منْ يُخبرنِي أنَّ الشُّرطةَ تبحثُ عنّي.

ارتعشتُ وارْتبكتُ واضطربتُ وبلغَ قلْبي أعْلى حلْقِي وكِدتُ أسقُطُ مُغْمًى عليَّ.

طلبَ عونُ شرطةٍ منْ والدِي أنْ يصطَحبني إلَى المرْكزِ، وهُناكَ لاقيتُ مَا لاقيتُ من شتْمٍ وركلٍ وتوبيخٍ.

هذه المرّةَ، وقفَ أبي فِي صَفّي لاَ ليقولَ إنّنِي علَى حقٍّ، فمَا قُمتُ به إجْرامٌ واضحٌ، ولكنْ، ليترجّى رئيسَ مرْكزِ الشُّرطةِ أنْ يُنهِيَ المَوْضوعَ بسلامٍ.

وجاءَ مديرُ المعْهدِ فوبَّخَنِي أمامَ الحَاضِرينَ جميعًا، ثمَّ قالَ إنّهُ سَيسْحبُ الشّكْوَى احترامًا لوَالدِي، وطلبَ أنْ أُمضيَ علَى التزامٍ بعَدمِ الاقترابِ منَ المعْهدِ وعَدمِ مُخالطةِ تلاميذِهِ.

طلبتُ العفوَ وكتبتُ صاغِرًا مَا أُمْليَ عليَّ وأمْضيتُ وأَمْضَى معِي أَبي وخرَجتُ أجْري حَتّى لاَ يَجْمَعَني بهِ الطّريقُ فَيَصُبَّ غَضَبَهُ عليَّ والنّاسُ يتفرَّجونَ.

سكَتَ عنّي الخوفُ وحلَّ محلّهُ الغضَبُ.

بتُّ أغلِي كَمِرْجَلٍ.

باتَ الغضبُ يأكُلُنِي.

انتظرتُ الصّباحَ أَعُدُّ الدّقائقَ.

ولمّا نهضتُ، أفطرتُ وتوجَّهْتُ إلى طريقِ المعهدِ أنتظرُ الذينَ وشَوْا بي إلَى الإدارةِ وقالوا إنّهمْ اسْتلمُوا منّي الرّخَصَ وهَجَمْتُ على كلّ منْ صادَفَني منْهم أُشبِعُهُ ضربًا وعَضًّا ورَكْلاً إلى أنْ أدْميتُ بَعضَهمْ.

كَثُرَ الهرجُ وتوافدَ التّلاميذُ والأولياءُ وأحْسَسْتُ أنّي شَفَيْتُ غَيظي فانسحَبْتُ متوعّدا ّ بعودةٍ أُخرى.

سألَ أوْلياءُ المتضَرّرينَ عنْ أبِي وَتَوَافَدوا علَى متْجرِهِ يشْتكُونَنِي. ونُصِبتْ لي فِي البيتِ مُحَاكمةٌ طويلةٌ انتَهَزهَا أبِي ليلحَّ علَى أنَّ كلَّ مَا أصبحتُ فيه به هوَ

نتيجةٌ لانْدفَاعي وَتَهجُّمي علَى الأسْتاذِ ومُعاقَبتي بالطّرْدِ.

ليلتَها، وعدتُ أبي بالاستقامَةِ، ونِمْتُ حَانِقًا.

صَباحًا، كُنتُ أمشِي وأَجيءُ أمَامَ الدّارِ أُرَاقبُ الذّاهبينَ إلَى مدارِسهمْ ومَعاهدِهِمْ. كنتُ هكذا عِندمَا مَرّ بِي "عمّ سَالم" جَارُنا البنّاءُ فحيّانِي وقَال لِي:

- أحتاجُ عامِلاً يُساعدنِي اليومَ، فهَلْ تأْتِي مَعي؟

لمْ أُفكّر طويلا ولم أعُدْ إلى الدّارِ حتّى لاسْتبدالِ مَلابِسي.

قُلتُ لهُ:

- هيَّا.

وَتَبِعتُهُ.

شَرَعْنا في العملِ.

كانَ عليَّ أنْ أجلبَ أكياسَ الإسمنتِ منَ المسْتودَعِ وأنْ أُغَرْبلَ الرّملَ وأخلطَ الاثنينِ خلطًا جيّدًا وأنْ أملأَ

السّطولَ بالمَلاطِ وأنْ أقرّبَ الآجُرَ منْ "عمّ سَالم"... وكانَ عليَّ أنْ أُعدَّ الشّايَ...

عملٌ يُسْلمُني إلَى عَملٍ... وَعَرقي يتصبّبُ وأطرَافي تئنُّ...

تقرّحَتْ يدايَ وتعبتْ مفَاصلِي وَأصابَ الإعياءُ كتفيَّ وركبتيَّ وكرهتُ نفْسِي.

ظللتُ ألهثُ لأستجيبَ لطلباتِ البنّاءِ إلَى أنْ حلَّ منتصفُ النّهارِ فتوقّفْنا لِنرتاحَ قليلاً. سَمعنَا نَحْنحةً دخَلَ بعْدَهَا صاحبُ البنايةِ حامِلاً خُبزًا وحَليبًا وماءً، ولكنَّه مَا أنْ رآَني حَتّى رَمَى مَا يَحملُ فوْق كُدْسٍ منَ الآجُرِ واقتربَ منّي نَاهِرًا:

- أنتَ، مَاذا تفعلُ في دَارِي؟

لمْ أجِبهُ.

انتظرتُ أن يُجيبَهُ "عمّ سَالم" الذي بقِيَ مبْهوتًا.

- اخْرُجْ منها ولا تدَعْ غَضبي يزيدُ عنْ حدّهِ.

هلْ تظنُّني نسيتُ تهجّمَكَ عليّ وإساءتكَ البَليغةَ؟ انظرْ إلى أينَ قادكَ تهوّركَ، إلى العملِ بحظائرِ البناءِ وأنتَ بعدُ طريٌّ لا تَحتملُ العملَ ولا التّعبَ؟ انظرْ إلى أينَ زجَجْتَ بنفسكَ، كنتَ تلميذًا مُحترمًا فَحوّلكَ اندفاعُكَ إلى عاملٍ يومِيٍّ يلهثُ من الصّباحِ إلى المساءِ. يُمهِلُ ولاَ يُهملُ، وأعَادهَا ثلاثَ مرّاتٍ.

كَيفَ واتَتْكَ الشّجاعةُ وتجرّأتَ وجئتَ بقدميكَ إلى عُقرِ دارِي؟

اخْرُجْ وإيّاكَ أنْ تعودَ. سأشتكيكَ إلَى الشّرطةِ إن اقتربْتَ منْ داري ثانيةً.

كانَ الذي نَهرني أُستاذُ العربيّةِ الذِي تَسبّبَ في طرْدِي.

هَذهِ هيَ المرّةُ الثّانيةُ التي يطْرُدُني فيها.

كانتْ الدّارُ دارَهُ ولمْ يكنْ أمامِي غيرَ أنْ أترُكَها صَاغِرًا.

رآني وأنا أمتطي طريقَ العودةِ بعضُ تلاميذِ المعْهدِ في هَيْئَتي تلكَ فأخَذوا يُصدرونَ صَفيرًا ويتهكَّمونَ بوقَاَحةٍ.

كنتُ محْبطا وكنتُ متعبا ولكنّي تظاهَرْتُ أنّي لاَ أُولِي أيًّا منهمْ اهتمامًا واقتربتُ مِنهمْ ثمَّ هجمتُ عَلى أحدِهِم فطرَحْتهُ أرْضًا وأشْبعتُهُ ضربًا وزدتُ على ذلك كلِّه فَعَضضْتُ أذُنَهُ حَتَّى أتركَ فيه عَلامةً لاَ ينْسَاها ولاَ ينسَانِي.

نَهَضَ الذِي علّمْتُ أذُنَهُ وأخَذَ يرْميني بالحِجَارِة ويسُبُّني ويُهدّدني بِأنّهُ سيجمَعُ عليّ أفواجا منْ أبناءِ عمومَتهِ ليؤَدّبونِي.

قالَ لي:

- لنْ يكونَ بِوُسْعِكَ أنْ تخرُجَ منَ بيتكِمْ بعدَ الآنَ، سيترقبّونكَ في كلِّ مُنْعَرِجٍ وَفي كلِّ طريقٍ وأمامَ داركُمْ ووراءها وعلى يَمينهَا وشِمالهَا، فانْظُرْ أينَ تختبئُ يا عُلْوان.

3

يَقَعُ متْجَرُ أَبي وسَطَ الحيِّ الذِي نَسْكُنُهُ. خَلْفَهُ وَإِلَى جَانبيْهِ مساكنُ الجيرانِ وأمامَهُ مدرسةٌ ابتدَائيَّةٌ. مِسَاحتُهُ لا تتجاوزُ الخمسةَ عشرَ متراً مربّعًا تتراصُّ فيها موادٌّ غذائيّةٌ وموادُّ تنظيفٍ وَقَنّيناتُ عطرٍ وكُؤوسٌ وصحانٌ وسطولٌ وماعونٌ مُختلِفٌ.

أَمّا حُرفاءُ أبِي فَصنفـانِ، صنفٌ يتزوّدُ بمؤونتهِ أوّلَ كلِّ شهرٍ ولاَ يعودُ إلاّ منْ حينٍ لحينٍ لشراءِ حاجيّاتِ استِهْلاكيّةٍ يوميّةٍ، وهذا الصّنفُ يتعاملُ مَعَ أبِي بالنّسِيئةِ فَيَدفعُ ما عليهِ ثمَّ يأخُذُ ما يَلزمُهُ للشّهْرِ المُوَالِي.

وَأمّا الصّنفُ الثّانِي، فتلامِيذُ المَدارِسِ الذينَ يجيؤونَ لشرَاءِ لُمَجِهِمْ اليوْميّةِ والمُدَخِّنونَ الذينَ يشترُونَ تِبْغهمْ والمارّونَ العَرضيّونَ.

لمْ يكلّفنِي أبي بشيءٍ مُعيّنٍ، ولَكنّهُ كانَ واضِحًا أنّهُ عليَّ أنْ أكنُسَ المَحلَّ والسّاحةَ المُحيطةَ به وأنْ أُدخِلَ السّلعَ التي تأْتي بها شاحِناتُ البيعِ بالجُملةِ وأنْ أرتّبَ الخُبزَ ثلاثَ مرَّاتٍ فِي اليوْمِ وأنْ أُلبّيَ طلباتِ الحُرفاءِ وأنْ أنْفُضَ الغُبارَ عنِ السِّلعِ ...

بدأتُ أفْعلُ كلَّ ذلكَ بتبرّمٍ شَديدٍ، وزادَ منْ تبرّمي الإعياءُ الذي يُلمُّ بي كلَّ مسَاءٍ حتّى أنّي أصبحتُ أرْتمي علَى سريرِي وأنامُ كَمَيّتٍ إلَى الفَجْرِ.

انقَضَى الشّهرُ الأوَّلُ دونَ أنْ أنالَ من أبي آخرَهُ ملّيمًا أبيضَ، فزادَ كُرْهي لهذا السّجنِ الذي ينغلق عليَّ منَ الصّباحِ الباكرِ إلى اللّيلِ آخذًا كلَّ وقتْي وآخذًا راحتِي وصِحّتي.

وانْعكسَ تبرُّمي بالمتْجَرِ وأشْغالِهِ على علاقتِي بالحُرفاءِ حتَّى وصَلتْ ذاتَ يوْمٍ إلى مُشادَّةٍ كلاميّةٍ بيني وبينَ امْرأةٍ ادّعَتْ أنّهَا دَفعتْ لِي ثمنَ مُشترياتِها فِي حينِ أنّي لمْ أقبضْ منْهَا ملّيمًا واحدًا.

ثُرتُ في وجْهِهَا وقذَفْتُها بنعوتٍ بذيئةٍ وطالبتُها بالدّفْعِ الفوْريِّ أوْ بإرجَاعِ ما أخذتْهُ منّي. ومرّةً أُخْرَى، لمْ يقفْ أبي فِي صفِّي بلْ في صفِّ المرأةِ التي احْتالتْ علَيّ وأعْطاهَا ما طلبتْ ورافقَهَا إلى بيْتِها.

يَوْمَهَا اشتدَّ بي الغضبُ وبقيتُ أغلِي.

ولاَ أَدْرِي كيفَ تسلَّلَتْ يَدِي إلَى عُلبةِ سجَائر فأخذتُ مِنها واحدةً وأشعلتُها ودَخّنْتُهَا بشَراهةٍ كأنِّي مدخّنٌ مُدْمِنٌ.

هَدّأتْني سيجارَتي الأوُلَى ولَكنّي خِفْتُ أنْ ينتبهَ إليَّ أبِي فأسرعتُ أَضُخُّ فِي المَحلِّ عطرًا مُنعشًا. ثمَّ وَضَعْتُ فِي جَيبي عُلبة سجائرَ كَامِلَةٍ ومَددْتُ يدِي إلَى دُرْجِ الأمْوالِ فأخذتُ منْهُ مبلغًا لمْ أَهْتمَّ بمِقدارِهِ وظللتُ أنتْظرُ المساءَ لأزدرِدَ عشَائي وأتّجِهَ نحوَ مقهَى "وسَط المَدينة".

طلبتُ قهوةً وبدأتُ أدخّنُ.

ومرَّ منْ أمَامِي أَحَدُ زملاءِ الدّراسةِ فناديتُهُ وطلبتُ لهُ مشروبًا وشجّعتُهُ علَى أنْ يُدخّنَ مَعي.

اعْترانِي إحْساسٌ مُنعشٌ.

أنَا الْآنَ فِي مَقْهى وَبينَ يَدَيَّ سِيجَارَتِي وَأَمَامِي قَهْوَتِي وَفِي جَيْبِي مَبْلَغٌ مِنَ الْمَالِ وَتَحْتَ إِمْرَتِي نَادِلٌ.

لَازَمَنِي ذَلِكَ الْإِحْسَاسُ إِلَى أَنْ اقْتَرَبَتُ مَنِ الْبَيْتِ.

حينَهَا نبتَ بدلاً عنهُ إحساسٌ بالخوْفِ. ستبدأُ سلسلة أسئلةٍ منْ قبيلِ أينَ كنتَ وماذا كنتَ تفعلُ ولماذَا تأخّرتَ. وَسَتَتْلُو تلكَ الأسئلةِ سلسلةُ نصائح غاضبة من قبيلِ لا تتأخّر بعدَ اللّيلةِ ونمْ باكرًا لتستيقظَ للمتْجرِ باكرًا ووو...

أجبتُ عنِ الأسئلةِ بالصّمتِ وَردَدْتُ على النّصَائحِ بطأْطأةِ رأسِي أمارةَ طاعةٍ وامتثالٍ وذهبتُ أنامُ.

أفقتُ صباحًا وبرأْسِي دُوارٌ لمْ أعْهده فيهِ.

اتّجهتُ إلَى المتْجرِ وبدأتُ في مساعدةِ أبِي وأنَا أنتظرُ بلا صبرٍ خروجَهُ لقضاءِ شأنٍ منْ شؤونِهِ لأعَانِق

سيجارَتِي الأُولَى عَلّنِي أُسكِّنُ بها دُوار رأسي. وَلَكَمْ كانتْ فرحتي شديدةً عندمَا دَعَا جارٌ لَنا أبي ليحدّثَهُ في شأنٍ بينهُمَا.

أشْعلتُ سيجَارتي وبدأْتُ أمتصُّ الدّخانَ بشراهَةٍ.

هَدأَ رأْسِي قليلاً.

ثمَّ وَجدتُ يدي تمتدُّ ثانيةً إلى عُلبِ السّجائرِ فَتَسْحَبُ منْها اثنتينِ وإلَى دُرجِ الأمْوالِ فتأخُذُ منهُ مبْلغًا لمْ أحْسُبْهُ.

انْتَظَرْتُ المساءَ بلهفةٍ، فَفِي المقْهى وحْدَهُ يُمْكنُني أنْ أدَخِّنَ بحرّيةٍ وأنْ أرْتَشِفَ القهوةَ معَ الدّخانِ.

كنتُ في ركنٍ أمارسُ هوايتِي الجَديدةَ عندَمَا اقتربَ منّي شَابٌّ أنيقٌ وقالَ لِي:

- عُلوان؟

أجَبْتهُ بنصفِ صوتٍ:

- نعم، هلْ تعرفُنِي؟

- ومنْ لا يعرِفُكَ؟ أنتَ الذي ضربْتَ ذلكَ الأُسْتاذَ؟

- نعمْ. أنَا الذِي ضرَبْتُ الأستاذَ.
- هلْ أجلسُ؟
- تفضّلْ.

طلبتُ لهُ قهوةً وأخذَ يُحدّثِي عنْ بُطولتِي وشجاعَتي وكيفَ أوْقفتُ الأستاذَ عندَ حدِّه وأدّبتهُ أدبًا لنْ ينْساهُ.

أعْجبني حَديثهُ إذْ لمْ يَسْبقْ منذُ حدثَ مَا حدثَ أنْ أثْنَى شخصٌ على ما قمتُ بهِ وَعَدَّهُ بُطولةً.

مَدَدْتُ لهُ سيجارةً فأخذَ يضحكُ.

- مَا هَذا؟ مَا هذا الذِي تُدخّنُهُ؟
- سيجارةٌ، دخانٌ، تبغٌ.

أدخلَ يَدَهُ في جيبهِ وأخرجَ سيجارةً قصيرةً ممْتلئةً سُرعانَ مَا أشْعلها وَوَضعهَا بينَ شفتيَّ وهْو يقولُ:

- عُربونُ صداقتِنَا. أنَا رمْزي، اعْتبرْني أخاكَ. كنتُ تلميذًا فِي ذلكَ المعْهدِ قَبلكَ وخرجتُ منهُ مرْفوتًا.

بدأتْ تسرِي في بدَني لذّةٌ عجيبةٌ.

- مِنْ أينَ تأتِي بهذهِ السَّجائرِ الحُلوةِ ؟
- أعْجبتكَ ؟
- أُحِسُّ أنّي أطيرُ، أطيرُ، أطيرُ عَاليًا.
- ناوِلْنِي أُخرَى لوْ سمحتَ.

عَادَ إلَى الضّحكِ.

- هِيَ الأخيرَةُ في جيبِي واللّهِ، ولكنّ صديقًا لِي يبيعُهَا علَى مَقْرُبةٍ منَ المقْهى.

اتَّجَهْنا إلَى الصّديقِ، نَاداهُ فجاءَ علَى عَجَلٍ، عرّفني به ونَقَلَ له رَغْبتِي فِي سَجائرِهِ.

باعَني بكلِّ مَا فِي جَيْبي سيجارةً أخْرى واتّفقْنا علَى أنْ نلتقيَ كلَّ مساءٍ فِي المقْهى نتبادلُ الحِكاياتِ وندخّنُ السّجائرَ ونتسامرُ.

كانت أمّي واقفةً بالبابِ.

وَيَبدو أنّها فعلتْ ذلكَ حتَّى لاَ أصْطدِمَ بأبِي.

رأيتُها فهرولْتُ نحوَها وأسْكتُّهَا بقبْلةٍ عنيفةٍ. رأيتُها تَحُكُّ أنفَها وتُعيدُ حكّهُ كأَنَّ رائحَتِي أزْعجتْها

وَلكنّها لمْ تَقُلْ شيئًا عَدَا أنْ نصَحتني بالنّومِ مباشرةً ليتسنَّى لي صباحًا الاستيقاظُ باكرًا .

صباحاً، لمْ أستطعْ الاسْتيقَاظَ.

جاءتْ أمّي وجاءَ من بعدها أبي ونادَياني برفْقٍ ثمَّ بعنف ثمَّ صبَّا علَى وجْهي ماءً باردًا... وَلَكنّي فتحتُ عينيَّ قليلاً ثمَّ عاودتُ الغرَقَ في النُّعاسِ إلى حُدودِ مُنتصفِ النّهارِ.

كانَ رَأْسي يَدورُ، ولكنّي تحاملتُ علَى نفْسي والتحقْتُ بالمتْجرِ.

رَآني أبي أدْخُلُ خَجِلاً فلمْ يتكلّمْ.

وظللتُ أساعدهُ وأنَا أتحيّنُ فرصةَ اختلاسِ مبلغٍ مهمٍّ منَ دُرْجِ الأمْوالِ وأنتظرُ خروجَهُ ولَوْ لِبرهةٍ لأُشعلَ سيجارَتي التِي دفعتُ فيها البارِحةَ كلَّ ما كانَ لديَّ.

رأيتُ أبي ينظُرُ إليَّ شزرًا ولَكنّي تَظاهرْتُ بأنّني لمْ أنتبهْ لنظرَتِهِ وظللتُ مُصرًّا علَى تحيُّنِ الفرصةِ إلى أنْ

حانتْ فأشعلتُ سيجارَتِي وملأتُ جيْبي بالتّبغِ وبالنّقودِ وظللتُ أنتظرُ المساءَ بلهْفةٍ.

ومعَ مرورِ الوقْتِ، بدأَ والِدايَ يعْتادانِ سَهَري واقْتنعَا قليلاً أنَّ قضاءَ يومٍ بطولهِ في المتْجَرِ بينَ حَمْلِ السِّلعِ وترْصيفِهَا وتلْبيةِ حوائجِ الحُرفاءِ يستوجبُ فسحةً ليليّةً وجُلُوسًا معَ الأصدقاءِ، وتَخَلَّصْتُ منْ أَسْئلتهمَا ولكنِّي بَدَأْتُ أُعاني منْ نَظَراتِهما التي بدتْ لي ملآنة تُهَمًا ولوْمًا وأَسْئلَةً.

استمرّتْ جَلَساتُنا فِي المقْهَى واسْتمرَّ تَعَاطينَا لتلكَ السَّجائرِ العَجيبةِ التي قالَ أصْحابِي إنَّهَا قادِمةٌ منْ بعيدٍ وإنَّها تَليقُ بمرْحلةِ الشّبابِ وتغْرِسُ في الرّوحِ وفي البدنِ الشّجاعةَ والثقّةَ في النّفسِ والرّجولةَ... واستمرّتْ عمليّاتُ الاخْتلاسِ منْ صُندوقِ المتْجرِ واسْتمرّتْ نظراتُ أمِّي وأبِي الملآنةِ تُهَمًا وحَيْرَةً وقلقًا وغَضبًا.

وبدأتْ حلقةُ السّجائرِ تتّسِعُ لأصدقاءَ جُدُدٍ يتمتّعونَ مجـانًا بالسّيجارةِ الأولى قبلَ أنْ يُصبحَ عليهم أنْ يدفعُوا ثمنَ مَا يقتنونَ. وَمعَ اتّساعِ الحلقةِ أصبحتْ لديْنا طقوسٌ جديدةٌ مثلَ تَقاسُمِ السّجائرِ واستلافِ ثمنِها والتّعامُلِ بالنّسيئةِ أحْيانًا معَ من يبيعونَها والبحثِ عنْ أصنافٍ أخْرَى أكثرَ لذّةً وأكثرَ فاعليّةً.

ظللتُ هكذَا، يوْمِي للمتجرِ وأوّلُ ليْلِي للأصْحابِ وللسّجائرِ إلى أنْ داهمتْ المقْهَى ذاتَ ليلةٍ دوريّةٌ أمْنيّةٌ وقبضتْ علَينا وقادتْنَا إلَى مَرْكزِ الأمْنِ متلبّسينَ بسَجائرِنَا ونُقودِنَا ورَوائحِنَا الكريهةِ.

4

كانتْ ليلةً منْ أحلكِ لياليَّ.

هَربَ دَمي منْ وَجْهي واضطربَ قلْبي وارتعشتْ أطرافِي واصطكّتْ أسْنانِي وَسَرَى فِي أطرافِي السُّفلىَ وفي سرْوالِي البللُ وكادَ يُغْمى عليَّ.

يا رَبّي مَا هذَا؟

أيْنَكِ يا أُمِّي؟

أَيْنكَ يَا أبِي؟

سَحَبوا منْ أَذْرُعِنَا كَمِّياتٍ قليلةٍ منْ الدّماءِ وَأَخْضعوهَا للاختبارِ ثُمَّ واجهونَا بحَقائقنا ولمْ يبقَ غيرَ أنْ يَفْصِلوا بينَ منْ يتَّجِرُ في تلكَ السّجَائرِ اللّعينةِ وبينَ منْ هوَ مُكْتفٍ باسْتهلاكِهَا.

زَارَنِي ليلتَها أَبي في المَنامِ.

رأيتُ وجهَهُ أسودَ كالفحْمِ ورأيتُ شفتيهِ يابِستيْنِ كقطعةِ خَشبٍ.

- كنتَ في نِعْمَةٍ فلمْ تشكُر.

كنتَ تنعمُ بالدّراسةِ ودفءِ العائلةِ فانظرْ إلَى أينَ وصلتَ.

أَفْرَغْتَ المتْجرَ وأفرغتَ مستقبلكَ وأصبحْتَ مُهدَّدًا بالسّجنِ.

وَزارتْني أمِّي مُوَلْولةً لاطمةً خدّيْهَا.

كانَ وجهُها أزرقَ كقطعةِ صخرٍ. قالتْ لِي:

- أَنا لستُ أُمَّكَ.

لَطالمَا شكَّ بكَ أبوكَ فَنَهيتُهُ عنْ شكّهِ.

ماذَا أقولُ الآنَ لإخوتكَ وللأهلِ وللجيرانِ؟

انظرْ ماذَا فعلْتَ بنفْسكَ وبنَا.

رأيتُهمَا قبلَ أنْ أستيقظَ مذْعورًا يخرُجانِ غاضبيْنِ يحْملانِ كلّ همومِ الدّنيا ويترُكانِي مرميًّا

كخروفٍ وَسَطَ مُتَعاطي المُخدِّراتِ الذينَ قُبضَ عليَّ مَعَهُمْ.

كانَ لديَّ كلامٌ كثيرٌ أحببتُ أنْ أقولهُ لذلكَ الصّديقِ الذِي حَبّبَ إليَّ أوّلَ سيجارَةٍ ولَكنّي كتمتُهُ في صدْري لأنّنِي أدركتُ أنّهُ لن يُغيّرَ شيئًا ولنْ يُجْديَ نَفْعًا.

كلُّ الكلامِ الذي يجبُ أنْ يُقالَ اكتفيتُ بأنْ قلتُهُ لنفْسِي.

حَوَّلونَا منَ المركزِ إلَى المحَكمةِ ثمَّ زُجَّ ببَعْضنَا فِي السِّجنِ وأُخِذْتُ أنَا إلَى الإصْلاحيّةِ.

كانتْ أيْدينَا فِي الأصْفادِ ونحنُ ننزلُ منْ سيّارةٍ زرقاءَ طويلةٍ كالخِرَافِ ونَدْخلُ قاعةَ المحكمةِ واحدًا واحدًا.

كانتْ أمِّي هُناكَ.

وسمعتُ بكاءَهَا منْ بينِ الأصواتِ التي كانتْ تَعُجُّ بها القاعةُ.

وكانَ أبي أيْضًا هناكَ.

واستطعتُ أنْ أتبيّنَ تنهيدتَه القويّةَ منْ بينِ كلِّ الضّجيجِ المُحيط بنا.

وكانَ المُحَامونَ يقفونَ وَراءنَا في صفٍّ مُنْتظِمٍ.

وبَدأتْ المحاكمةُ. كانتْ التُّهمُ واضحةً والأدلّةُ قائمةً وليسَ أمامنَا وأمامَ المدافِعينَ عنَّا غيرَ طلبِ تخفيفِ الحُكمِ ومراعاةِ صغرِ سنِّ بعضنَا ونقاءِ سَوابقنَا وتضرُّع أهَالينَا.

كنتُ أَرْتجفُ وأنا واقفٌ أمامَ الرّئيسِ ومُساعديهِ.

وكانَ بلَلٌ يسْري بينَ فَخِذيَّ.

وكنتُ مطأطئَ الرّأسِ كحمارٍ أرْهَقتهُ المسافةُ والحمولةُ.

وكنتُ أتمنَّى أنْ ينتهيَ الموقفُ بسرْعةٍ لأذْهبَ إلَى سجْني الذِي لاَ مفرَّ منهُ.

هناكَ لنْ يرانِي أحدٌ غيرَ المسْجونينَ معِي.

ولكنَّ المحاكَمةَ طالتْ والوقت كانَ يرفُضُ أنْ يَمُرَّ.

عَوَتْ أمّي لَمَّا سمعتْ الحكمَ الصّادرَ بِشَأْنِي: الحبسُ في الإصلاحيّةِ لمدّةِ ستّةِ أَشْهرٍ.

وَعَوَى فِي صدْري قلْبي حتَّى كادَ ينطُّ أمامِي وحتَّى تمنّيتُ لوْ يهْوي أرضًا فأرتاحَ مِنْهُ ومنْ نفْسِي وأريحَ النّاسَ منِّي.

لمْ أتمنَّ الموتَ مثلَمَا تمنّيتُه ذلكَ اليومَ.

ولمْ ألعنْ سيجارَتِي الأولَى مثلمَا لعنتُها ذلكَ اليومَ.

ولمْ أَشْتُمْ ذلكَ الذي حبّبَ إليَّ السّجائرَ المخدِّرةَ مثلمَا شتمتُهُ ذلكَ اليومَ.

ولمْ أكرهْ تهوُّري واندفاعِي وهجُومي علَى أسْتاذي مثْلمَا كرهتُه حينَها.

جَرُّونَا منْ أمامِ الرّئيسِ إلَى سيّاراتِ الإصلاحيّةِ والسّجنِ.

حانتْ منِّي التفَاتةٌ فرأيتُ دمعَ أمِّي يسيلُ علَى وجْنتيْهَا اللّتيْنِ أَصْبحتَا فِي لوْنِ الرّمادِ.

ساقونَا وأرْكبونَا وَزَمْجرَتْ السّياراتُ الزّرقاءُ الطّويلةُ وأطلقتْ صفّاراتِهَا ومضتْ لا تلْوِي علَى شيءٍ.

كانَ الصّمتُ يلفُّني.

وكانَ النّدمُ يأكُلنِي.

وكنتُ ألطمُ وجْهي بكَفّي وأضربُ رأْسي بجدارِ السّيارةِ وأبْكي.

سَأَقْضي فِي هذا الحبْسِ الذِي يُسمّونَهُ إصلاحيّةً ستّةَ أشهرٍ بأيّامِها ولياليهَا.

كيفَ سأقْضيها وكيفَ سأكونُ بعدها وأيَّ مستقبلٍ ينتظرُني؟

نسيتُ أنْ أحدّثكُمْ عنْ رأْسي.

فبعدَ أنْ قُبِضَ علينا وأُوقفنَا فِي قسْمِ الشّرطةِ وحُوكمنَا في المحْكمةِ، بدأَ يدورُ بقوَّةٍ.

كأنَّ شيئًا ينقُصُهُ.

كأنَّ الدَّم لا يدورُ فيهِ.

كَأنّه ممتلئٌ بالهواء.

كأنَّ عفريتا يسكنُهُ.

أُحسّهُ باردًا ثمَّ أحسُّهُ حارًّا ثمّ أشعرُ بهِ مضْغوطًا علَى أُهْبَةِ الانفجارِ. أُمْسِكهُ بينَ يديَّ، أُمَسِّدُه، أَطرقُهُ بأصابعِي ، أَخْبِطُهُ على أيِّ شيءٍ أمَامي... أفعلُ كلَّ ذلكَ ولا تَخِفُّ أوْجاعُهُ... أَصُبُّ عليهِ الماءَ الباردَ ثمَّ أصُبُّ عليه الماءَ السّاخنَ... يَهْدأُ قليلاً ثمَّ يضغطُ عليَّ ثانيةً.

يُعطيني ممرّضُ الإصلاحيّةِ حبوبًا مسكّنةً، أَلْتهِمُها فيخِفُّ الوَجَعُ قليلاً ثمَّ ينتفضُ منْ جديدٍ.

زارنِي والدَايَ فَسَألانِي عنْ سببِ شُحوبِي وإمْساكي رأسِي بينَ يديَّ واسْودادِ وجْهي وذبولِ عينيَّ، فوصفتُ لهُما مَا أُعانيه منْ وجعٍ وشكوتُ لهُما ما أكابدُه منْ عذابٍ . تحوّلتْ نِقمتُهمَا عليَّ إلَى شفقةٍ ولكنّهَا شفقةٌ بطعْمِ العجْزِ إذْ ليسَ أمامَهُما ما يفعلانهِ ولا يستطيعَان أنْ يُفيداني بشيءٍ.

وَوَصَلَ الأمرُ إلى إدارةِ الإصلاحيّةِ فَعُرِضتُ علَى الطّبيبِ الذي نَصَحَ بنقْلي إلى مرْكزٍ لعلاجِ مُتعاطِي المخدّراتِ.

قالَ أبي:

- سأبيعُ ما لديْنا منْ زيتونٍ وأبْحَثُ لكَ عنْ طبيبٍ.

يا اللّهُ ، مَاذا يَبْقى لأبي إذا باعَ زيتونَهُ؟

في ذلكَ الزّيتونِ رائحةُ أمّهِ وأبيهِ.

أنَا كنتُ السّببَ في اقترابِ المتجرِ منَ الإفلاسِ.

كنتُ أسرقُ منهُ عُلَبَ التّبغِ وما يدخُلُ الأدراجَ من أموالٍ.

وهَا أنَا الآنَ أُجبرُ أبي على بيْعِ ما ورِثَ عنْ أبيهِ منْ زيتونٍ.

ذلكَ الزّيتونُ كانَ يوفّرُ لنَا مَا يكْفينَا منَ الزّيتِ كلَّ عامٍ وكنّا نبيعُ منْه نصيبًا وافرًا.

إذا باعَهُ أبي فسيُضطرُّ إلَى شراءِ الزّيتِ بعدَ أنْ كانَ يبيعُهُ.

لمْ تُعجبني فكرةُ بيعِ أشجارِ الزّيتونِ ولكنَّ الألمَ الملمَّ برأْسي قالَ لِي " اتْرُكْهُ يبيعُ أيَّ شيءٍ من أجلِ أنْ تَتَعافَى ويعودَ رأسُك إلى هدوءِهِ وتصبحَ برأسٍ سويٍّ. "

كنتُ أعرفُ أنِّي مسْجونٌ وأنَّ أبي لنْ يستطيعَ أنْ يتصرّفَ إلاَّ بعدَ خَروجِي منَ السّجن أو الإصْلاحيّةِ ولكنّي لمْ أعْترضْ علىَ فكرتِهِ بلْ إنِّي وجدتُ فيهَا أَمَلاً لشفائي.

جاءَ عونٌ وَسَحبني قائلاً :

- هيّا ، انتَهى وقتُ الزّيارةِ.

لَوَّحتُ لأمِّي بيدِي وَجَرْجرتُ قدميَّ عائدًا إلَى مكَاني. في طريقِ عوْدتي ألمّ بي إغْماءٌ وكِدتُ أسقُطُ لولاَ أنَّ واحدًا منَ الأعْوانِ انتشلنِي وأخَذَني إلَى سريرِي وطلبَ منْ زميلٍ لي أنْ يَصُبَّ عليَّ الماءَ.

أحاطَ بي نزيلان منْ نزلاءِ الإصْلاحيّةِ فَمَسّدَا جبينِي ورقَبتِي ومَزّقا سِرْوالي وشدّا أطرافهُ علَى رأْسي شدًّا مُحكمًا.

قالاَ لي:

- هكَذا نَضْمَنُ أنّهُ لنْ ينفَجِرَ.

- شُكرًا ، قلتُ لهُما منْ أعْماقِ قلْبي.

أحْسستُ ببعْضِ الرّاحةِ وبدأْتُ أخْلُدُ إلى النّومِ.

كانَ يجبُ أنْ أنامَ لأنسى ألمَ رأْسي وأنْسَى زيارَةَ والديَّ اليومَ.

تمنّيتُ ألاَّ يأتيَا لزيارَتِي وألاَّ يرَيَاني مَحْبوسًا وَمُجْرجرًا كحمارٍ ومريضًا يتلوّى منَ الألَمِ ونَحيلاً كفزّاعةِ حقولٍ وذابلاً وأسودَ منَ الحُزْنِ والجوعِ كَجَرْوٍ مريضٍ.

كنَّا نلتَقي في البيتِ فأصبحَ يلاقينا السّجنُ.

تمنّيتُ ألاَّ أرَاهُمَا وَأَنَا فِي وضعِ حبسٍ وألاَّ أرَى فِي عَيْنَيْهمَا كلَّ ذلكَ الهمِّ والغمِّ والألَمِ والعِتَابِ والعجْزِ.

وَكنّا نتحَدَّثُ عنْ الدّراسَةِ والمُستقبَلِ فأصبحَ حَديثُنَا حولَ ألمِ الرَّأْسِ وإقامَتي فِي الإصلاحيّةِ والشُّحوبِ والمَرَضِ.

وَكُنَّا معًا فأصْبحنا نلتقِي بعضنَا بعضًا حسبَ المواعيدِ وفِي عُلبٍ مُغْلَقَةٍ.

وكنَّا فِي غِنًى عنْ كلِّ مَا صِرنَا إليْهِ.

5

صَدَرَ الأمرُ بنقْلِي إلَى مركزٍ مختصٍّ في عِلاج المُدْمنينَ.

وقيلَ لِي إنَّ فترةَ العلاجِ سَتُحتسبُ ضمنَ مُدّةِ العُقوبَةِ.

وَبدأتْ رحلةٌ أخرَى.

أطبّاءُ وممرّضُونَ وأدويةٌ وحقنٌ ونومٌ طويلٌ باللّيلِ وبالنّهارِ.

ولكنّي أحْسستُ أنّني أَفضلُ.

المَرْكزُ نظيفٌ وليسَ فيهِ ازدحَامٌ كبيرٌ وليستْ فيهِ أوامِرُ ونواهِي صَارمةٌ والمُقيمونَ فيه يشْتركُونَ فِي أنّهم يبْحثونَ عنْ علاجٍ ليُقلعُوا عنِ التّدخينِ بأنوَاعهِ.

خضعتُ طيلةَ صبيحةِ يوْمِي الأوّلِ بذلكَ المركزِ إلَى مُحادثةٍ أجْراهَا معِي المُديرُ والطّبيبُ المُعالِجُ وأخصّائيٌّ نفْسيٌّ وأخِصائيّةٌ اجتماعيّةٌ.

أجبتُ عنْ أسئلتِهِمْ الكثيرةِ ورويْتُ لهمْ حِكايتِي معَ التّدخينِ منذُ أوّلِ سيجارَةٍ وضعتُها بينَ شفتيَّ وأنَا في متجرِ وَالِدي مرُورًا بسيجَارَةِ صديقِ الصّدفةِ "رمزي" وصولاً إلى السَّجائرِ الكثيرة التِي كُنَّا ندخّنُهَا أصدقَائي وَأنَا فِي المقْهى وخارِجَهُ .

أفْهَمني الطّاقَمُ المُشرفُ علَى حالتِي أنَّ عِلاجِي منْ تعاطي السّجائرِ المخدِّرةِ سيمرُّ بستِّ مراحل أُولاهَا نَزْعُ مَا ترسّبَ فِي بدنِي منْ سُمومٍ وَمَـا جرَى فِي دَمي منْ مُخدّراتٍ وثانيتُها علاجُ الأعْراضِ الانسحابيّةِ المترتّبةِ عمّا دخّنتُهُ منْ سجائر مثلَ اضطرابات النّومِ وآلامِ الرّأْسِ والبطنِ والتّعرُّقِ وارتفاعِ درجةِ حرارةِ الجسْمِ والرَّغْبةِ في الانتحارِ والهلْوساتِ المتكرّرَةِ.

ثمَّ تأْتِي مرْحلةٌ ثالثةٌ يُسمّونَها مرحلةَ التّأهيلِ وعليّ أنْ أتعلَّم فيهَا ومنْ خلالِ جلساتِ العلاجِ النّفسيِّ والسّلوكيِّ عددًا مـنَ المهاراتِ وأنْ أتعاطَى الأدْويَةَ

التي سَتُسَاعِدُني علَى عدمِ العودةِ إلَى التّدخينِ حتَّى لاَ أعودَ إلى الانتكاسِ منْ جديد.

وَتَلي تلكَ المرْحلةَ الاستشاراتُ النّفسيّةُ وفيها أخضعُ إلَى جلساتِ حوارٍ فرديٍّ وجَمَاعيٍّ أتحدَّثُ خلالَها عنْ تجربتي ونتائجِ المراحِلِ السّابقةِ. ثمّ يأتِي دورُ العلاجِ المجتمَعيِّ حيثُ يجري البحثُ عنْ حلولٍ أُسَريّةٍ واجتماعيّةٍ تساعدُ علَى عدمِ العودةِ إلى تعاطي المُخدّراتِ.

وَينتَهي العلاجُ بمرحلةٍ أخيرَةٍ يُسمّونَها مرحلةَ منعِ الانتكاسِ وتَعتمدُ علَى تناولِ أدْويةٍ مُهمّتُها إعادةُ تنشيطِ المُخّ وإعادتِهِ إلَى سيرَتِهِ الأُولَى.

وَوَجدْتُني وأنا أسْتمعُ إليهمْ ألعنُ نفْسي التي أَمَرتْني بالتَّهجُّمِ علَى أُسْتاذِي والإسَاءَةِ إليهِ وألْعَنُ تلكَ الحماقةَ التي تَسببّتْ في تَحْويلِي منْ تلْميذٍ مُحْترَمٍ إلَى مُدَخِّنٍ للسَّجائرِ المُخدّرةِ ينَتقَلُ بينَ مراكِزِ الأمْنِ والإصْلاحيّاتِ وَمُستشفياتِ الإدمَانِ، وألْعَنُ حانقًا

اللّحظةَ التِي مَدَدْتُ فيها يَدي إلَى تلكَ السّيجارَةِ الأُولَى وإلى تلكَ السّيجارةِ الهديّةِ التِي قَلبتْ حياتي رأسًا علَى عَقِبٍ.

تلكَ اللّذَةُ المسْروقةُ يقابلُهَا كلُّ هذا العَذابِ.

تلكَ الشّجاعَةُ المزْعومةُ يقابلُها كلُّ هذا الهَوانِ.

ما ظَنَنْتُهُ طمأنينةً وهدوءً وراحةَ بالٍ أدَّى بِي إلَى كلِّ هذا الاعتلالِ والاكْتئابِ.

كمْ كنتُ غبيًّا .

كمْ كانَ مُحتالاً ذلكَ الذِي أعْطانِي سيجارَةً فِي المقْهَى وأَشْعلهَا وَوَضَعها بينَ شفتيَّ وَرَغَّبني فيهَا وَمَدَحَنِي كثيرًا وأَعْلَى منْ شأْنِي وَجعلَ منِّي بطلاً هُمَامًا.

كمْ كنتُ غبيًّا عندمَا كنتُ أخْتلسُ قُوت أبِي وأُمِّي وإِخْوتِي لأُقدّمَهُ ثمنًا لهَلاكِي.

لمْ يكنْ أمامِي غيرَ أنْ أُحبّبَ العِلاجَ إلَى نفْسي وَأتمسّكَ بكلِّ مراحلِهِ. تحمّلتُ أوْجاعَ رأْسِي

واضْطرابَ بَدَنِي وَحصصَ المُحادثاتِ والعلاجِ والأدْويةِ إلَى أنْ بدأْتُ أَشْعُرُ أنَّني أفَضَلُ.

كانَ الوقتُ طويلاً ولكنِّي بعدَ أنْ خفّتْ أَوْجاعِي قَليلاً أصبحتُ أَقْضي جُزْءًا منهُ فِي التّعرّف عَلَى نُزَلاءِ المرْكزِ والاستماعِ إلَى مآسيهِمْ.

أَصْبحتُ صديقًا حميمًا لِـ"حِلمي" الذِي سَبقني إلَى المرْكزِ بِشَهْرٍ واحِدٍ. حدّثتُهُ عنْ حماقَاتِي وعنْ تَهَوُّرِي وعنْ ندمِي وَرَوَى لِي حكايَتهُ التي تُشْبِهُ قليلاً حِكايَتي. قالَ:

كنتُ فِي سَنَتي الثّانَويَّةِ الأَخيرةِ وكانتْ الباكالوريَا حُلْمِي وحُلْمَ أمّي وَوَصيّةَ أبِي قبلَ مَوْتِهِ رحمهُ اللّهُ. لمْ أكنْ أشكُّ في نَجاحِي ولاَ كانَ أَسَاتذتي يشكّون فيه. بدأتُ استعداداتي باكرا أيْ منذُ افتتاح العام الدّراسي وكنتُ أفضّلُ أنْ أُراجعَ دُروسِي بمُفرَدي.

خَصّصتْ لِي أمّي غُرفةً واسعةً فِي الطّابقِ العُلوي ولمْ يَكنْ لهَا منْ همٍّ غيرُ السّهرِ علَى راحَتِي ولاَ أدْري

لِماذا وكيفَ وافقتُ اثْنيَن منْ أصْحابي علَى أنْ نُراجعَ معًا.

دَعَوْتُهُمَا إلَى البيتِ فرحّبتْ بهِما أمِّي وبدأْنا نلْتقي كلَّ ليلةٍ فَنُراجعُ مَا قدَّمَ لنا الأساتذةُ ونُنْجِزُ اختباراتٍ ونجيبُ عنْ أسئلةٍ وَنَتَنَاقَشُ فِي مَسائلَ تتعلّق بالامتحانِ.

كانَ كلُّ شيءٍ يسيرُ بسلامٍ إلَى أنْ اقترحَ صاحبايَ واحدًا ثالثًا قالاَ إنّهُ ألحَّ عليْهِما ليكونَ معنَا فاسْتَشرْتُ أمِّي وَوَافقتُ عليهِ.

دخلَ عليْنَا فسلّمَ بأدبٍ وبسطَ كَراريسَهُ وَبَدَأَ يُشاركُنا المُراجعةَ، وبعدَ ساعةٍ أَخْرجَ منْ جيبهِ سيجارةً واسْتأْذنَ فِي تَدْخينهَا وَبَدأَ يُحدّثنا عنْ فضلِ السّجائرِ فِي مُساعدةِ الطّلابِ علَى الدّراسةِ والاسْتعدادِ للامْتحاناتِ.

وَبَدا لنا نحنُ الثّلاثةُ أنَّ مِزاجَهُ بعْدَ السّيجارةِ تحسّنَ وأنّهُ أصبحَ هادئًا وأنَّ الارتباكَ والاضطرابَ اللّذيْنِ

كانَا يُلازِمانِهِ زالاَ ، فظننّا أنَّ ذلكَ كلّهُ يُساعدُ على الفهم والتّعمّق وُينبّه الذّاكِرَةَ ويحفّزُ الذّكاءَ.

تشجّعَ صديقايَ وطلبَا سيجارَتيْنِ وتشجّعتُ وجارَيْتُهُما فطلبتُ واحدةً.

انتَعَشْنا.

اِنْتشيْنَا .

حَلّقْنا عاليًا.

وخرجَ الحديثُ منَ الدّروسِ إلَى أشياءَ أخرى.

واتَّفَقْنَا علَى أنْ نُراوحَ بينَ المُذاكرَةِ والتّدخينِ... وأَصْبحنا نُمكّنُ صاحبنا ذاكَ منْ ثمنِ السّجائرِ فيأتينا بها كلَّ ليْلةٍ.

ولمْ تنتبهْ أمّي لشيءٍ فقدْ كانت تُرَابِطُ بالطّابقِ السُّفليِّ وكثيرًا مَا يَغْلِبُها النّومُ فلاَ ألْقاها إلاَّ صباحَ اليومِ المُوالِي، وَلكنّهَا لاحظتْ أنَّ طلبِي للمالِ زادَ عنْ حدّهِ فنَبَّهتْني بخجلٍ شديدٍ.

اهتديتُ -كَيْ لاَ أُحرجهَا- إلَى بيعِ بعضِ التُّحفِ التي كانتْ تُزيّنُ غرفتِي وبعضَ الكتبِ وهاتفٍ جوّالٍ كنتُ أدّخرهُ وأشياءَ أخرَى فَلَمْ يعدْ ممكنًا أنْ أستغنيَ عنْ تلكَ السّجائرِ ولاَ عنْ رفقةِ هذا الثّالوثِ اللّذيذِ.

وَأكْثرتُ منْ تقبيلِ أمِّي حتَّى لاَ تتفطّنَ إلَى أنِّي أَخْدعُهَا وأُماطلُها وَأَظْهرتُ لها كثيرا منَ الودِّ وقدّمْتُ لهَا وُعُودًا قاطِعةً بالتَّفوُّقِ.

ولكنَّ المرءَ يُكرمُ يومَ الامتحانِ إنْ نجحَ ويُهانُ إنْ أخفقَ... وَأَنَا أخفقتُ.

وَصَدمَ فشَلي أمّي قبلَ أنْ تكتشفَ الحقيقةَ وقبلَ أنْ تكتشفَ أنَّ لياليَّ كانتْ للسَّهَرِ لاَ للمُراجعةِ وأنَّ أصدقاءَ السُّوءِ بدَّلُوا حَياتي وَحوّلوني منْ تلميذٍ موعودٍ بالنّجاحِ تَفْصلهُ عنْ الجامعةِ أشهرٌ معدودةٌ إلَى تلميذٍ فاشلٍ عليهِ أنْ يستمرَّ بتناولِ المُخدّراتِ أوْ أنْ يذهبَ إلى مركز للعلاجِ.

ها أنَا أمامكَ أَتداوَى.

ضُعْتُ وأَضَعْتُ أحلامَ أمِّي البريئةِ.

هيَ الآنَ تبيعُ ذَهبهَا منْ أجلِ أنْ أتعالجَ.

هيَ الآنَ تأتي لزِيارَتي ولَكنّهَا ترْفُضُ أنْ تُصافحَ عيْناها وَجْهي.

- لنْ أنظرَ إليكَ، قالتْ، ولنْ أُسامحكَ.

قلْ لِي بربّكَ كيفَ أعودُ كمَا كنتُ وكيفَ أُرْضيهَا وكيفَ وكيفَ وكيفَ...

وانخرطَ فِي موْجةِ بكاءٍ وَوَجَدْتُنِي أبْكي معهُ.

وانخرطَ معنا شبّان آخرون كَانوا يَظنّونَ أنَّ مَا يتناولونَهُ سَيجعلُ منهمْ رجالاً أشاوِسَ وسيُذهبُ قلقَهمْ وسيُنْعشهُمْ فإذا هوُ يحوِّلُهم إلى حُطامٍ ويجعلُ منهمْ نفُوسًا مريضةً شفاؤهَا عسيرٌ وبطيءٌ.

رأيتُ أُمّهُ يومَ جاءتْ لزيارَتهِ. فُتِحَتْ لهُما غرفةٌ خاصّةٌ بالزّياراتِ ورأَيْتهَا تُشيحُ بوجْهَا عنهُ وهْيَ تكلِّمُهُ. رأيتُ شحوبَ وجْهِهَا وذبولَ عَيْنيهَا. جاءتْ محمّلةً بقفّةٍ

فيها منْ كلِّ الأكْلاتِ ومنْ كلِّ الغلالِ. قالَ إنَّها سألتْهُ عنْ صحّتِهِ وعنْ تقدُّمِ علاجِهِ وقالَ إنّهُ فعَلَ ما بِوُسْعِهِ ليفوزَ بِنَظْرَتِها وَلكنَّها كانتْ قدْ اتّخذتْ قرارها النِّهائيَّ: لنْ تنظرَ إليهِ.

حمدتُ اللَه عَلى أنَّ أمِّي لمْ تتّخذْ هذا القرارَ وعَلى أنَّ أَبي لمْ يَدُرْ بخُلدِهِ أنْ يُقاطعَ النَّظرَ إليَّ.

مَا حياتِي إذا كانَ والِدايَ يرْفُضانِ أنْ يضعَا عينيْهِمَا عليَّ ؟ لاَ شيءَ... لاَ شيْءَ... لاَ شيْءَ.

اعتراني خوفٌ شديدٌ وظللتُ أنتظرُ بلهفةٍ يومَ الزّيارَةِ لأَتأكّدَ منْ أنَّ أمّي لمْ تتّخذْ قرارًا بتجاهُلِ وجْهِي وَمِنْ أنَّ أبي غضبَ واحتقنَ ولكنّهُ سيظلُّ ينظرُ إليَّ.

نقلتُ خوْفِي إلَى صاحِبِي فَزمَّ شفتيْهِ ولمْ يقلْ شيئًا. كانَ حزينًا وكنتُ أكثرَ منهُ حُزْنًا. كانَ مُنهاراً وكنتُ أكثرَ منهُ انهيارًا. كَانَ معتلاً وكنتُ أكثرَ منهُ اعتلالاً .

أردتُ أنْ أُخفّفَ عنهُ فاقْترحتُ عليه أنْ نتنَاسَى حَالَنَا بِلَعبِ الوَرَقِ.

أَخذْنَا نلعبُ وَبَدأَت الأوراقُ تَجْري وتدورُ ببطء، وكانتْ صورةُ أمِّي مُمْسِكةً بخَيالِي حتَّى أنِّي رَأَيْتُها تُطلُّ منْ بينِ أوراقِ اللَّعبِ وظلّتْ مُمْسِكَةً بي حتّى حينمَا خَلَدْتُ إلَى النّوْمِ. كانتْ هناكَ تنتظرُنِي، كانتْ مُتَجهِّمةً يظهرُ عليهَا غمٌّ كبيرٌ. حاولتُ أنْ أنظرَ إليها فَلَمْ أستطعْ. كانتْ عيناها تنظُرُان إلى الأَسْفَلِ.

6

وَأَخيرًا حلَّ يومُ الخميسِ.

لا أَدْري لماذَا تأخَّرَ كثيرًا هذهِ المَرَّةَ.

لاَ أدْري لِماذا لاَ تتأخَّرُ الأيّامُ الأُخْرَى التي لاَ أنتظرُ فيها زيارَةَ أَهْلِي.

البارحَةَ، بيْني وبينَ نفْسِي تمنّيتُ لْو يتكرَّمُ أبي وأُمّي ويصطحبانِ معهُما إِخْوتي السّتَّةَ أَوْ بعضًا منهُمْ.

هلْ يفْعَلانِها؟

رُبَّما.

"سحنون" و"يوسف" و"برهان" و"ليلى" و"ساجد" و"مفيدة".

البارحةَ تذكّرتُهُمْ كلاًّ على حدةٍ وتذكّرتُ تفاصيلَهمْ الجميلةَ ومرحَهُمْ وشغبهمْ.

اغتسلتُ جيّدًا وسرَّحتُ شعري وتعطّرْتُ حتَّى لاَ أتْرُكَ لعينيْ أُمِّي فرصةً للهروبِ.

يجبُ أنْ أكونَ لائقًا حتّى تَراني وتُمْعِنَ النّظرَ إليَّ.

البارحةَ، فكّرتُ في أنْ أطلبَ منها أنْ تنظرَ إلَى صاحِبي وَتَضَعَ فيه عينيْهَا حتَّى تُخفّفَ عنهُ وطْأَ مقاطعةِ أمِّهِ النّظرَ إليْهِ .

لاَ أدري لِمَاذَا ألحَّتْ عليَّ تلكَ الفكرةُ، ولكنّي خِفْتُ أنْ يَرَياها هَيَ وأبي جُنونًا وأنْ يَعُدَّاهَا منْ تأثير المخدِّراتِ التي كنتُ أدخِّنُهَا أوْ تأثيرِ الدّواءِ الذي أتناولُهُ.

قلتُ لِصاحِبِي:

- كيفَ تَرَاني ؟

- أراكَ جميلاً وَأراكَ تَتَعافَى... أراكَ أفضلَ بكثيرٍ... ستسرُّ أمُّكَ لِمَرْآكَ.

قالَ ذلكَ وابتعدَ عنِّي حتّى لا تنهمرَ دُموعهُ فينغّصَ عليَّ فرحةَ لِقائي بأَهْلِي.

وَحَلَّ منتصفُ النّهارِ .
نُودينَا إلَى الغداءِ فهرعتُ لاَ لهفةً علَى الأكلِ ولكنْ لأَنتهيَ منَ الواجبِ سريعًا وأنتظرَ مَقْدَمَ والديَّ.
تناولتُ قطعةَ خبزٍ ثمَّ أعدتُهَا إلَى مكانِها وتناولتُ قطعةَ لحمٍ ثمَّ مَدَدْتُهَا إلى صَديقي الجالسِ قُبالتي ثمَّ أخذتُ تفّاحةً فقضمْتُ رُبْعَهَا وقمتُ أغسلُ يديَّ وأراقبُ هِندامي وَهيْئَتي.
لمْ أنتظرْ بعدَ ذلكَ طويلاً.
جاءَ الموظّفُ المُكلّفُ بالزّياراتِ وقالَ لي:
- اِتْبَعْنِي.
تبعتُهُ جذلانَ حتَّى وقفَ على بابِ غرفةٍ مُهيّأةٍ للْمرْضى وأَهاليهمْ، ثمّ تركَني وانْصرفَ.
كانَ أبي جالسًا فوَقَفَ لمَّا رآني أقتربُ.
سلَّمَ عليَّ ببرودٍ فسلّمتُ عليهِ بحيرةٍ .
سألَني عنْ حالي فأجبتُهُ أنِّي بخيرٍ وأنّي أَفْضلُ.
انتظرتُ أنْ يتكلّمَ فلمْ يزدْ علَى سُؤالهِ ذاكَ شيئًا.

عِنْدَهَا ، انفجرتُ باكيًا.

- ما يُبكيكَ يا عُلوان ؟ هلْ أَخْبروكَ بِـ ...؟

كَأَنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّهُ تَسَرَّعَ قليلاً .

- أَبْكِي لأنَّ أُمّي ليستْ معكَ.

لازمَ أبِي الصّمْتَ برهةً ثمّ قالَ:

- ولنْ تكونَ مَعي.

- لنْ تكونَ معكَ ؟

قرّرتْ أنْ تُقَاطِعني ؟ ألاّ تنظرَ إليَّ ؟ فعلتْ مثلَ أمِّ صَديقي ؟

لمْ يفهمْ أبِي شيئًا منْ كَلامِي.

- اُدْعُ لهَا بالرَّحمةِ.

- مَا مَعْنَى أنْ أدعوَ لها بالرّحْمةِ ؟

- أَلَمَّتْ بِها جلطةٌ دماغيّةٌ أَوْدَتْ بحَياتِها فِي الحينِ.

- ماتتْ؟

هَمْهَمَ أبِي ثمّ أجابَ بتَصْميمٍ فهمتُ منهُ أنّهُ يقولُ لي "أنتَ منْ قتلَهَا".

- نعمْ ، ماتتْ.
- لنْ تعودَ ؟
- لنْ تعودَ.
- لنْ أراهَا ولنْ تَراني؟

بنفسِ التّصميمِ أجابَ:

- لنْ تراها ولنْ تَراكَ .
- لماذا لمْ تقلْ إنَّها مريضةٌ وكَفَى؟ لمَاذا لمْ تُعلِموا إدارةَ المركزِ بموْتِها لأخرُجَ وأراهَا ؟ لـمَاذا ماتتْ أصلاً ؟ لقدْ كانتْ هنُا الخميسَ المَاضي.
- كانتْ هنا وعادَتْ مُتْعَبةً ولازمتْ الفراشَ يومينِ قبلَ أنْ تُدْرِكَها جلْطَةٌ حادّةٌ .
- هلْ ذَكَرَتْني قبلَ موْتِها؟ هلْ قالتْ عنّي شيًا ؟ هلْ أَوْصتْ بشيءٍ؟

لمْ يُجبْ أبي عنْ أسئلتي، ففي هيئَتِهِ وعينيْهِ مَا يُفيدُ أَنّهُ مصرٌّ علَى أنّني القاتلُ وعلَى أنَّ جرَائـمي تتَواصَلُ حتّى وأنَا بينَ أربعةِ جُدرانٍ.

أخذتُ أخْبِطُ رأسِي علَى البابِ وأُوَلْوِلُ وأَلْطِمُ خدّيَ وأمزّقُ لحْمِي. وَجاءَ أعوانٌ سَمِعوا الضّجّةَ فنصحُوا أبِي بالخروجِ واسْتَدْعَوْا لِي الطّبيبَ.

رأيتُ الطّبيبَ يَحْقُنني وكمْ تمنّيتُ ألاّ أُفيقَ بعدَ حُقْنتهِ أبدًا.

كمْ تمنّيتُ أنْ تكونَ حقنتهُ تلكَ حقنة مُميتَةً لا أستفيقُ بعدهَا أبدًا ولا أحْيا.

كنتُ صادقًا فِي أُمْنيتي.ً

فالموتُ وحدهُ يمكنُ أنْ يحقّقَ نسيانَ جرَائمي التي ختمتُهَا بِقتلِ أُمّي.

هلْ يقتلُ الواحدُ منَّا أمَّهُ ؟ هلْ يكونُ جزاءُ الأمِّ قتلُها وحِرمانُها منْ عُمرهَا وأولادِهَا ؟

انظرْ يا عُلوانُ ما فعل بكَ تهوّرُك واندفاعُكَ وادّعاؤك الرّجولة والشّجاعة ؟

انظرْ يَا عُلوان ما فعلتْ بك رغبتك المجنونةُ في أن تعيش الرّجولة وأنت بعدُ طفلٌ لم تتجاوزْ السّادسةَ عشْرةَ منْ عمركَ ؟

انظرْ يا عُلوانُ إلَى أينَ قادتكَ مخالطةُ الأشْرارِ والمنحرفينَ.

نِمْتُ. لا أَدْري كَمْ نمتُ، ولكنَّ أصدقَائي في المركزِ قَالُوا إنَّني نمتُ كثيرًا.

عِندمَا استفقتُ وجدتُهُمْ محيطينَ بي: مديرُ المركزِ وأعوانُهُ والطّبيبُ والممرِّضونَ وأصْحَابِي.

هَوّنوا عليَّ مُصيبتي وَبَدؤُوا يُواسُونَنِي ويُذَكّرونَني بأنَّ ما حدثَ قضاءٌ لاَ رادَّ لهُ وأنَّ حُزنِي لنْ يعيدَ أُمّي إلى الحياةِ.

وقالَ لي المديرُ :

- تَهْوينًا عليكَ يا علوانُ ورحمةً على أمّكَ في قَبْرها ، سنسمحُ لكَ بمغادرةِ المركزِ علَى أنْ تستمرَّ فِي العلاجِ .

كانَ هذا الخبرُ سيكونُ سعيدًا لوْ أنَّ أمِّي لا تَزالُ على قَيْدِ الحياةِ.

ولكنّني قلتُ في نَفْسِي: إذَا كانتْ أمّي قدْ ماتتْ، فإِخْوَتي السّتةُ وأبي علَى قيدِ الحياةِ.

بتُّ علَى قلقٍ. ولمَّا التقيتُ الطّبيبَ صباحًا أَمْطرني بوابلٍ منَ النّصائِحِ حولَ مَا يجبُ عليَّ فعلُه حتَّى لاَ تعودَ إليَّ الآلامُ، ثمّ جاءَ الأخصّائيُّ الاجتماعيُّ فَحذّرني منَ الاخْتلاطِ بالجانحينَ والمُتهوّرينَ والذينَ لاَ أهلَ لهمْ يراقبونَ سُلوكَهُمْ وبكلِّ أصنافِ المُنحرفينَ.

وجاءَ بعدهُ الأخصّائيُ النّفسيُّ فترحَّمَ علَى أُمّي وطلبَ منّي أنْ نقرأَ لهَا سويًّا الفاتِحةَ وَدَعَا لها بالجنّةِ ثمّ نَصحني أنْ أقومَ مقَامَها وأنْ أَعْتني بإخْوَتِي وأنْ أُسَاعِدَ والدي:

- لاَ أحدَ باسْتطاعَتِهِ أنْ يُعوّضها غيرُكَ. فَكُنْ أُمًّا لإِخْوَتِكَ وكُنْ رفيقاً لأبيكَ تَحْصِدْ رِضاهُما مَعًا.

جَمَعْتُ أمْتِعَتي وأخذتُ أَدْوِيَتي وَوَدَّعْتُ أصحابي وركبتُ سيّارةَ المرْكزِ التي أَوْصلتِنِي إلَى بابِ الدّارِ.

7

جَاهَدْتُ نفْسي لأَبْدُوَ قويًّا وأَدَعَ حُزْني فِي صدْري وَأَظْهرَ أَمامَ إخْوَتي بمَظهرِ منْ يتقبّلُ القضاءَ والقَدرَ ولكنِّي بِمُجرّدِ مَا رأيتُهُمْ يُهرولونَ لاحْتضاني ومُعانقَتي انفجرْتُ بُكاءً.

أسرعتُ إلى صورةِ أمّي أُقبّلُها وأطلبُ منها أنْ تسامحَني وفتحتُ خزانتها أتشمّم رائحتها في أثوابها ثمّ اجْتَمَعَ حَوْلِي الْجِيرَانُ فهدَأْتُ.

كَانَ يَوْمَا حزينًا.

تَمَنَّيْتُ لَوْ كَانَتْ هُنَا.

تَمَنَّيْتُ لَوْ أَنَّهَا انْتَظَرَتْنِي قَلِيلاً.

تَمَنَّيْتُ لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَمُتْ وَأَنَا فِي مَرْكَزِ الْعِلَاجِ.

تَمَنَّيْتُ لَوْ أَنَّنِي لَمْ أَكُنِ السَّبَبَ فِي كُلِّ هَذَا الَّذِي

يَجْرِي ولو أنّها مَاتَتْ بِسَبَبِ آخَرَ، إذنْ لحزِنتُ عَلَيْهَا وَتَرَحَّمْتُ عَلَى رُوحِهَا وَهَدَأْتُ.

مَازالتْ عَيْنَا أَبِي تَتْطِقَانِ اتِّهَامًا.

أَنَا رَمَّلْتُهُ وَمِنْ حَقِّهِ أَنَّ يَتَّهِمَنِي.

وَأَنَا يَتَّمْتُ صِغَارَهُ.

وَأَنَا أَخَذْتُ مِنْ صِحَّتِهِ وَصِحَّةِ أُمِّي وَمِنْ هنَائِه وهنائها وَمِنْ وَقْتِهِ وَوَقْتِهَا وَمَنْ سُمْعَتِهِ وَسُمْعَتِهَا.

فَلْيتَّهِمني.

وَلْتُطْلِقْ عَيْنَاهُ نَحوَي شَرَرَهَا وَعِتَابَهَا وَتَوْبِيخَهَا.

حَمَدْتُ اللّهُ عَلَى أَنَّ إِخْوَتَي لَا يُدْرِكُونَ أَنِّني السَّبَبُ فِي يُتْمِهِمِ الْمُبَكِّرِ.

لَوْ كَانُوا يُدْرِكُونَ ذَلِكَ لازدادت أَصَابِعُ الاتّهامِ نحْوي وَلَأَصْبَحْتُ وَحِيدَا فِي مُوَاجَهَةِ أَبٍ غَاضِب وسِتَّةِ إِخْوَةٍ حاقِدينَ.

مَاذَا عَلَيَّ أَنْ أفعل؟

لَنْ أَعُودَ إِلَى المتْجر.

وَلَيْسَ أَمَامِي أُفْقٌ آخَرُ.
وَلَيْسَ لِي أَصْدِقَاء يُوَجِّهُونَنِي وَيَنْصَحُونَنِي.
الْكَلُّ هَجَرَنِي.
أَصْبَحْتُ مَنْبُوذًا ، فَأَنَا الْمُعْتَدي عَلَى أُسْتَاذِهِ وَالْمَطْرُودُ مِنْ مَعْهَدِهِ وَمُخْتَلِسُ كُنّش الطَّبِيبِ وَالْمُعْتَدي عَلَى تلاميذِ المعْهدِ وسارقُ أبيه ومدخّن الْمُخَدِّرَاتِ وَخِرِّيجُ الْإِصْلَاحِيَّةِ وَنَزِيلُ مَرْكَزِ عِلاَجِ الْمُدْمِنِينَ وَقَاتِلُ أُمِّهِ ومرمّلُ أَبِيهِ وَمُيَتِّمُ إِخْوَتِهِ.
تُهَمٌ بِحَجْمِ السَّمَاءِ.
مَاذَا عَلَيَّ أَنْ أفعل ؟
لَمْ يُوَجِّهْ إِلَيَّ أَبِي نَصِيحَةً وَاحِدَةً وَلَمْ يَقُلْ لِي شَيْئًا.
تَرَكَنِي أَوَاجِهُ وَاقِعِي وَحِيدًا كَأَنَّهُ يَقُولُ بِصَمْتِهِ
"أَنَا اِهْتَمَمْتُ بِكَ فِي حَبْسِكَ وَتَابَعْتُ عِلاَجَكَ وَلَمْ يَعُدْ لَدَيّ مَا أفعَلُهُ مِنْ أَجْلِكَ..."
تَرَكْتُ الْبَيْتَ وَخَرَجْتُ هَائِمًا أَمَشْي مَشْي الْعِمْيَانِ.
قَادَتْنِي قَدَمَايَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ.

هُنَاكَ سَأَلْتُ الْحَارِسَ عَنْ قَبْرِ أُمِّي وَاتَّجَهْتُ إِلَيْهِ هَرْوَلَةً.

قَرَأْتُ الْفَاتِحَةَ عَلَى رُوحِهَا وَجَلَسْتُ عِنْدَ رَأْسِهَا أَبَلِّلُهُ بِدُمُوعِي.

قُلْتُ لَهَا كَلَامًا كَثِيرًا، قُلْتُ لَهَا إِنَّنِي أَنَا مَنْ قَتَلَهَا وَإِنَّنِي مُدْرِكٌ أَنَّهَا كَتَمَتْ غَيْظَهَا إِلَى أَنْ ضَجَّ بِهِ صَدْرُهَا فَانْفَجَرَتْ عُرُوقُهَا وَمَاتَتْ.

تَمَرَّغْتُ عَلَى قَبْرِهَا وَبَكَيْتُ كَثِيرًا ثُمَّ تَرَكْتُ الْمَقْبَرَةَ وَهِمْتُ عَلَى وَجْهِي.

قادَتْني قَدمايَ إِلَى المقْهى الذِي ضُبِطْتُ فيهِ وَجُرِرْتُ منهُ إِلَى مرْكزِ الأَمْنِ. دَخلْتُ وألقيتُ نظرةً عَلى الجَالِسينَ والواقِفينَ ثمَّ انتحيْتُ ركنًا وطلبتُ قهوةً. لمْ يقتربْ منّي أحدٌ ولاَ رَغِبَ النّادلُ الذِي عَرفَني وَتَجَاهَلَنِي فِي تَلْبِيَةِ طَلَبِي كَأَنَّهُ يَطْرُدُنِي.

رَأَيْتُ صَاحِبِي الَّذِي اشْتَرَيْتُ لَهُ أَوَّلَ عَهْدِي بِالْمَقْهَى مَشْـرُوبًا وَأَجْلَسْتُهُ إِلَى جَانِبِي فَحَيَّيْتُهُ وَنَادِيتهُ

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرُدَّ عَلَى تَحِيَّتِي وَتَجَاهَلَنِي وَتَجَاهَلَ نِدَائِي.
قَرَّرْتُ أَنَّ أَنَهَضَ لِرَفْسِهِ رَفْسًا وَلَكِنّني أَدْرَكْتُ أَنَّ كُلَّ مَنْ فِي المقْهى وَاقِفُونَ ضِدِّي وَكَارِهُونَ لِوُجُودِي وَإِنَّهُمْ سَيَقِفُونَ إِلَى جَانِبِهِ إِنْ أَنَا خَاصَمْتُهُ، فَلُذْتُ بِالذُّلِّ وَبِالْصَّمْتِ.
انْتَظَرْتُ الْقَهْوَةَ قَلِيلَا وَلَمَّا أَدْرَكْتُ أَنَّهَا لَنْ تَأْتِيَ وَأَنَّ صَاحِبَ الْمَقْهَى وَنَادِلَهُ وَحُرَفَاءَهُ لاَ يَرْغَبُونَ فِيَّ، اِنْسَحَبْتُ وأنا عازِمٌ عَلَى أَلاَّ أعُودَ، ويومَ أشتهي قَهْوَةً فَسَأَجِدُهَا فِي أَيِّ مَقْهَى آخَرَ.
هَلْ أَصْبَحْتُ تُهْمَةً تَمْشِي ؟ هَلْ أَصْبَحَ وُجُودِي يُمَثِّلُ خَطَرًا؟
أَإِلَى هَذِهِ الدّرجةِ أصبحَ النَّاسُ يَتَحَاشَوْنَنِي؟
لَعَلَّ صَاحِبِي الَّذِي لم يردَّ عَلَى تَحِيَّتِي يَخَافُ إِنْ هُوَ اخْتَلَطَ بِي أَنْ أُفْسِدَهُ أوْ أنْ يُقالَ عنهُ إنّهُ يتعاطى المُخدّراتِ مِثلي، ولعلَّ صاحبَ المقهى ونادِلَهُ غاضبانِ لأَنَّنِي كنتُ ممّن أَفسَدْتُ مَقْهَاهُمْ وَلَوَّثْتُهَا وَدَخَّنْتُ

فِيهَا مَا لاَ يَجِبُ أَنْ يُدَخَّنَ وَاخْتَلَطْتُ فِيهَا مَعَ ثُلّةٍ مِنَ المنحرفينَ...

وَلَعَلَّ حُرَفَاءَ الْمَقْهَى يَنْظُرُونَ إليَّ عَلَى أَسَاسِ أَنّني مُنْحَرِفٌ يجِبُ اجْتِنابُهُ وَعَدَمُ الْجُلُوسِ إِلَيْهِ وَعَدَمُ الْحَديثِ مَعَهُ.

مَاذَا عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ؟

مِنْ أينَ سَأَتدبّرُ مَصاريفِي؟

وكيفَ أساعدُ إخوَتي؟

لاَ بُدّ أنْ أُعوّلَ علَى نَفْسِي ولاَ بدَّ لي منْ موردِ رزقٍ.

اتّجهتُ نحوَ مقهى يَبْدو أنّهُ فتحَ أبوابَهُ حديثًا وانتحيْتُ لي رُكنا وطلبتُ قهوةً وبدأتُ أَرْتشفُهَا وأَنَا أُحاولُ أنْ أفكّرَ في حلٍّ لِمُشكلتِي.

فكّرتُ أنْ أشتغلَ في البناءِ ولكنَّ ذِكرَى ذلكَ اليومِ المَشْؤومِ عادتْ إليَّ ومَنَعتْني منْ مُواصلةِ فكْرتِي ثمّ إنَّ صِحَّتي لمْ تَعُدْ تسمحُ بمثلِ تلكَ الأعْمَالِ المُضنيةِ... وفكّرتُ أنْ أجوبَ دكاكينَ الحدّادينَ

والنّجّارينَ أطلبُ منهمْ أنْ يعلّمونِي ويُشغّلُوني ولكِنّي خِفْتُ أنْ يكونَ تارِيخي قدْ سَبِقَني إليهمْ.

فكّرتُ أنْ أنتصِبَ أمامَ مدرسةِ حَيّنا وأبيع لتلاميذَها المناديلَ الورقيّةَ والبسْكويتَ والحلويّاتِ والأقلامَ، ولكنِّي خفتُ أنْ يغضبَ أَبي وَيتّهِمني بافْتكاكِ حرفائهِ الصّغارِ ثمَّ قرّرتُ أخيرًا أنْ أُحافظَ على فكرةِ البيعِ أمامَ مدرسةٍ علَى أنْ أبتعدَ عنْ دكّانِ أبِي.

الفكرةُ الآنَ جاهِزةٌ وعليَّ أنْ أتدبّرَ مبلغًا منَ المالِ أشتَري بهِ بضاعةً.

لا شجاعةَ لديَّ لمفاتحةِ والدي فِي الموْضوعِ ولاَ قريبَ أوْ صاحبَ لي أتّكئُ عليهمَا لمُساعَدتي.

طَفَتْ صورةُ خالتي علَى ذاكرتي فحمدَتُ اللَه علَى أنَّ حكايةَ الكُنّشِ لمْ تبلغْ مسَامِعها وعزمتُ عَلى زيارتِها للاقتراضِ منْها.

كانتْ خالتي نُسخةً منْ المرحومةِ أمِّي، لذلكَ وَجَدْتُني بمجرّدِ ما فَتحتْ لِي البابَ أرتمي في حُضنهَا وأبْكي. هيَ أيضًا بكتْ وأَدخلتني ورَحّبتْ بِي وأَكْرمتِني. انتبهتْ إلى أنِّي أَنظرُ إليْها وَأتملّى وَجْهَهَا كأنّنِي أتملّى وجهَ أمِّي. أشفقتْ خالَتي عليَّ كثيرًا وقالتْ لِي:

- تعالَ دائمًا، تعالَ إن شئتَ كلَّ يومٍ، والآنَ قلْ لي مَا حاجتُكَ يا عُلوان؟

تردّدتُ.

وقفَ الكلامُ علَى شفتيّ قليلاً ثمَّ بدأَ ينسابُ رويدًا رويدًا.

قلتُ لهَا:

- أَنا الآنَ ضائعٌ. لاَ أملَ لي ولاَ مُستقبلَ أمَامي، وعَليّ أنْ أؤمّنَ مَصارِيفي وأنْ أساعدَ اليتامَى السّتّةَ الذينَ تَركتهمْ والدتي رحِمهَا اللُه. لمْ تعدْ صحَّتي تسمحُ لي بالأعْمالِ المُضنيةِ ولمْ أَهْتدِ إلى غيرِ فكرةِ

الانتصابِ أمامَ إحْدى المدارسِ لبيعِ ما يَحْتاجُهُ الأطفالُ الصّغارُ منْ أكلاتٍ وحلويّاتٍ وأقلامٍ...

أدركتْ خالَتي بُغْيتي فقامتْ إلى غرفةٍ أخرى وَعادتْ إليَّ بمبلغٍ منَ المالِ.

شَكَرْتُها كثيرًا وقَبّلتُ يدَها ووعدتُها بزيارةٍ قريبةٍ.

دَاعبني الفرحُ وقلتُ:

- غَدًا أُصبحُ صاحبَ مشروعٍ أمتلِكُهُ وحْدي لاَ شريكَ لي فيهِ، وَغدًا يكبُرُ مشْروعي وَينْمُو وغدًا يصبحُ لإخوتِي منْ يُسَاعِدُهم ولأمِّي منْ يتصدّقُ عليهْا.

سَأَشْتري البضاعةَ وأتدبّرُ طاولةً وكرسيًّا وأنتصبُ أمامَ إحْدى المدارسِ ألبّي طلباتِ الصّغارِ وسَتَزْهُو الدُّنيا لكَ يَا عُلوان.

8

باكرًا معَ نَسَماتِ الفجرِ الأولَى، حملتُ طاولةً وكرسيّا وقفّةً ضخمةً فيهَا بضاعتِي واتّجهتُ إلى مدرسةِ النّورِ.

رَصّفتُ سلعِي بعنايةٍ تجذبُ أنظارَ الأطفالِ وبدأتُ أنتظرُ.

جاءَ بعْدي شابٌّ يدفعُ عربةً، اقتربَ منِّي وَنظرَ إليَّ وإلى طاوِلتي نظرةَ احتقارٍ ثمَّ قالَ:

- منْ سمحَ لكَ بالانتصابِ قُبالةَ المدرسةِ؟ هذا المكانُ لِي منذ أكثرَ منْ عاميْنِ لاَ يُشاركُني فيهِ أحدٌ.

نظرتُ إلَى سواعِدِهِ المفتولةِ وإلَى جَسدِه الذي يُشبهُ جسدَ ثور، وقلتُ:

- هذَا المكانُ يتّسعُ لنا جَميعًا.

- هوَ يتّسعُ ولكنْ لاَ حقَّ لكَ فيهِ، اتْرُكْهُ حالاً.

زمجرَ دَاخِلي عُلوان القديمُ.

- لنْ أتركَه.
- سَتتركُهُ.
- لنْ أتركَهُ.
- سنرَى.
- نعمْ، سوْفَ نَرى.

ابتعدَ عنّي مُتوعِّدًا، وبدأَ التّلاميذُ يتوافدونَ.

صَبيحَتها، لا أَدْري أَمِنْ حُسنِ حظّي أمْ منْ سوءِهِ أنْ تركُوهُ وجَاؤُوا إليَّ. تفحَّصُوا طاولَتِي واقْتَوْا منْها مَا يلزمُهُمْ منْ أقلامٍ وبسكويتٍ ومناديلَ ورقيّةٍ وشوكولاطَة وحلويّاتٍ.

رَأَيْتُهُ يتميَّزُ غيظًا ورأيتُهُ يستعملُ هاتِفَهُ مرّاتٍ عديدةٍ قبلَ أنْ يندفعَ نحوَهُ اثنانِ يمتطيانِ دَرّاجتينِ ناريّتينِ.

تَحدّثوا فِي ما بينهمْ ثمّ جاءَ الشّابّانِ ودارَا حَوْلي ويبدُو أنّي التقطتُ ملامحَ أَحَدهِما.

عادا إليهِ ورَأيتُهمَا يضْحكانِ ورأيتُه يضحكُ معهُما.
أَخافَني ذلكَ الضّحكُ ولكنّي لَزِمْتُ طاولَتي وظللتُ قائمًا علَى طلباتِ حُرفَائي الصّغارِ إلَى أنْ حلّتْ الخامسةُ مساءً فانصرَفْتُ حاملاً طاوِلتي وكُرسيّي ومَا بَقِيَ منْ بضاعَتِي.
أَفْسَدَ عليَّ ذلكَ اللعينُ فرحَتي بمَا جَنَيْتُ اليومَ ممَّا بعْتُهُ لأطفالِ المدرسةِ. خَاطبني كَأنّني عَدُوٌّ لَدودٌ وَهَدّدنِي كأنّهُ يملكُ المدرسةَ وساحتَهَا.
وَتَوعَّدني كَأنّني افتككْتُ منهُ رِزْقَهُ.
وَيَبْدو أنّهُ تآمرَ عليَّ معَ اثنينِ منَ المُنْحرفينَ لاَ أدَري مَاذا سيفْعلانِ بِي.
سَأَلَني إخْوتي وهمْ يُحيطونَ بي كيفَ انقضَى نهَاري الأوّلُ فابتسمتُ لهمْ وطَمأنتهمْ بأنّهُ كانَ نهارَ ربحٍ.
جهّزتُ مَا سأحْملهُ منْ بضاعةٍ في اليومِ المُوالي وتفقّدتُ شؤونَ إخْوتي ثمَّ تعشّيْتُ ونِمْتُ.

كانَ هناكَ. كانَ ينتظِرُني فِي نوْمي. رأيتُه يترك عربته ويهجمُ عليّ، عيناه تتّقدانِ شررًا وهراوةٌ غليظةٌ بيدهِ اليُمنى. رأيتُه يقتربُ، حاولتُ أنْ أتكلّمَ وأنْ أفرَّ منهُ وأنْ أطلبَ النّجدةَ فلمْ يغادرْ صوْتي حُنجرَتي ولمْ تُطاوِعْني أَطرافِي لإتيانِ أيّة حركةٍ. ظللت ُهكذا بُرْهةً ثمّ استفقتُ لاهثًا وظللتُ يقظًا إلَى الفجْرِ. ظللتُ يقظًا حتَّى لاَ يُهاجِمني منْ جديدٍ.

صباحًا، تذكّرتُ كابوسِي فتردّدتُ في الذّهابِ إلى المدرسةِ ولَكنّني غَلَبْتُ تردّدي.

كانَ هناكَ، منتصبًا فِي مكانهِ والأطفالُ يروحونَ ويجيئونَ حولَهُ.

رتّبتُ سِلَعِي أنَا أيضًا وبدأتُ أستقبلُ حُرَفائي.

التفتُّ إليهِ فرأيتُهُ يضحكُ.

ما هذا الضّحكُ وَمَا وراءهُ ؟

لماذا يضْحكُ مِنّي هذا المجنونُ ؟

لمْ أنتظرْ الإجابةَ طويلاً، فقدْ جاءَ إلَى طاوِلَتي بعدَ أنْ انتهتْ مراسمُ تحيّةِ العَلَمِ مديرُ المدرسةِ فَحيّاني وَأَمرني بإخْلاءِ المكانِ.

- لِماذا؟ الأرضُ أرضُ اللّهِ وأَنا يتيمٌ وعاطلٌ.

- وكنتَ تتَعاطَى المُخدِّراتِ ... لِماذا لمْ تُضفْ أنّكَ كنتَ تلميذًا عَاقّا وأنَّكَ كنتَ تُعاشِرُ المُنْحرفينَ وأنّكَ دخلتَ السّجنَ ووو.

فهمتُ الآنَ لماذَا كانَ صاحِبي يضحكُ.

وفهمتُ الآنَ لَماذا اسْتنجدَ أمسِ بشابّيْنِ ولعلّني تَذَكَّرتُ أحدَهُما. ذانكَ الشّابّانِ حَامَا حوْلي ونقّبَا عنْ تاريخي وقدّماهُ إليه فقدّمه للمدير وحذّرهُ منّي.

- اِنتصبْ في أيِّ مكانٍ تريدُ ولكنْ لاَ تقتربْ منْ مدْرستِي ولاَ تَضْطرّنِي إلَى استدعاءِ الشُّرْطةِ .

لمْ أَقلْ شيئًا.

كانَ يمكنُ أنْ أدافعَ عنْ نَفْسِي.

كانَ يمكنُ أنْ أقولَ لهُ: صَحيحٌ أَنّني دخّنتُ سجائرَ مُخدّرةٍ مدّةً ولَكنّي تعافيتُ وأنا الآنَ أُمارسُ عملاً شريفاً لاَ أضرُّ بهِ أحدًا... ولكنِّي أَدْركتُ أنَّ الكلامَ لنْ يُجديَ نفعًا.

أَعدْتُ البضاعةَ إلَى القفّةِ وحملتُ طاولَتي وكُرسيّي وعُدتُ أَدْراجِي إلَى البيتِ خائبًا بائسًا كئيبًا.

اللّعنةُ تُلاحِقُنِي.

هلْ عليَّ أنْ أموتَ لينْسَى النّاسُ أنَّني قضيتُ مدّةً أدخّنُ سجائرَ مُخَدِّرَةٍ ؟

لَماذا لاَ يذكرونَ أنَّني عُولِجْتُ وتعافيتُ؟

لِماذا لاَ يذكرونَ أنّنِي يتيمٌ وبائسٌ؟

لماذَا لاَ يقولونَ إنَّني أَمْتهنُ عملاً شريفًا لاَ أضرُّ منْ ورائهِ أحدًا؟

لماذَا ظلّتْ ذاكراتُهم مُلتصقةً بتلكَ السّجائرِ التي دخّنتُها وتلكَ المدّةِ التِي قَضيتُها بينَ الإصلاحيّةِ والتَّداوي؟ لماذا؟، لِماذا ، لِماذا؟

عادَ إليَّ ألمُ رَأْسِي .
تذكّرتُ ما فعلَ معِي ذانكَ الّشابّانِ حينَ مزّقَا سرْوالِي وشدَّا بهِ رأْسِي.
ذهبتُ إلَى خزانةِ أمِّي فأخذتُ وِشَاحًا طويلاً وشددتُ رأْسي شدًّا مُحْكَمًا وبدأتُ أحاولُ أنْ أنامَ.
تداولتْ عليَّ وأَنا بينَ النّومِ واليقظةِ صورُ المعهدِ الذِي طُردتُ منهُ والمقْهى الذِي ضُبطتُ فيهِ والمركزِ الذِي أُوقفْتُ بينَ جُدرانهِ والمحكمةِ التِي وقفتُ أمامَ رئيسهَا أرتعدُ والإصلاحيّةِ التِي سُمّيتْ بهذا الاسمِ منْ بابِ التّلطيفِ في حينِ هيَ لاَ تَعْدُو كونَها حبسًا لمنْ همْ دونَ العشرينَ عامًا ومركزِ العلاجِ الذي جاءني وأَنا فيهِ خبرُ موتِ أمّي والمدرسةِ التي طردتُ منْ أمامِها والسّيجارةِ الأُولَى التي اختلستُها فاختَلستْ منّي كلَّ شيءٍ والسّيجارةِ التي أُهديتْ إليّ والتي كانتْ فخًّا نُصِبَ لِي فوقعتُ فيهِ.

لمْ ألعنْ في تلكَ اللّيلةِ أحدًا عدَا نفْسي. لَعَنْتُنِي وكرّرتُ لَعْنِي ثمَّ دعوتُ اللّهَ أنْ يكونَ معي ومعَ إخْوتِي ومعَ أبِي.

عندما نهضتُ صباحًا، كنتُ أفضلَ بقليلٍ وكانتْ الأوجاعُ قدْ اختفتْ أوْ تكادُ ولمْ أَدْرِ حينَ أَرسلَ إليَّ أبِي يطلبُ منِّي أنْ ألحقَهُ إلَى متجرِهِ أأُلَبِّي طلبَهُ أمْ أتجاهلُهُ. تردّدتُ قليلاً ثمَّ هرولتُ إليهِ.

- قُمْ مقامِي، قالَ لِي، لديَّ حديثٌ معَ خالكَ "عزْمي".

سلّمتُ علَى خَالي "عزمي" ببرودٍ وسلّمَ عليَّ ببرودٍ أشدَّ ووقفتُ أُصغي السّمعَ إلى مَا يدورُ بينه وبين والدي منْ حديثٍ.

تَحدّثَا عنْ المرحومةِ أمِّي وعادا معًا إلى ذكرياتٍ قديمةٍ كثيرةٍ، ثمّ سمعتُ خالي يقولُ:

- اسمعْ يا سِي عبد اللّه، منْ ماتَ لا يعودُ، والحيُّ أبقى منَ الميّتِ، وأنتَ الآنَ أصبحتَ رجلاً أرملَ تحتاجُ امرأةً تَعْتَني بكَ وبأبناءِ المرْحومةِ.

حاولَ أبي أنْ يُقاطعهُ فمنعَهُ بلطفٍ:

- لا تُقاطعْني ولاَ تقلْ شيئًا. اِبْحَثْ لكَ عنْ امرأةٍ تَتَزوَّجهَا ولاَ لومَ عليكَ.

قالَ ذلكَ ونهضَ شادًّا علَى يدِ أبي ومؤكِّدًا على أنّهُ ينتظِرُ أنْ يسمعَ أخبارًا سارّةً في القريبِ العاجلِ.

اِحْتقرَني وهوَ يتجاوزُني خارجًا وفهمتُ أنّهُ لو كانَ يمكنهُ أنْ يدوسنِي تحتَ قدميهِ لدَاسَنِي.

خرجتُ دونَ استئذانٍ إذْ لمْ تعدْ لأبي بي حاجةٌ، خرجتُ والألمُ يَطرُقُ رأْسي بشدّةٍ ووجدتُ قدميَّ تسيرانِ بي إلَى المقْهى الجديدِ.

9

ها هِي المصائبُ تَتتالَى.
وَهَا أُمورٌ ستحدثُ لمْ أقرأْ لهَا أيَّ حِسابٍ.
امرأةٌ أُخرى فِي بيْتِنَا.
امرأةٌ أخرَى لأَبِي.
أمٌّ جديدةٌ لي ولإِخْوتِي.
هلْ ستظلُّ الأمورُ على حالِهَا؟
مَا الذِي سيتغيّرُ؟
هلْ سَأَظلّ ابنًا لأَبي أمْ سأصبحُ ضيفًا ثقيلاً غيرَ مرْغوبٍ فيهِ وغيرَ مُرَحَّبٍ بهِ؟
هلْ سأظلُّ ابنًا يَكْفُلُني والدِي أمْ سأصبحُ عالةً يجبُ التّخلّصُ منْهَا؟
كيفَ أفعلُ إنْ أساءتْ القادمةُ الجديدةُ معامَلتي ومُعاملةَ إخْوتِي؟

بلْ كيفَ أفعلُ إنْ أساءتْ معاملةَ أَبي؟
وماذَا سيحدُثُ إنْ أنجبتْ زوجةُ أبِي صغيرًا أوْ أكثر؟
هلْ سيصبحُ إخْوَتي أعداءَ لأبنَائِها؟
أحتاجُ واحدًا يُجيبُني عنْ أَسْئَلَتي الكثيرةِ.
أحتاجُ واحدًا يُوَاجِهُني بحدّةٍ ويقولُ لِي بلاَ خَجَلٍ ولاَ خوْفٍ: أَلسْتَ أنتَ منْ قادَ الأسرةَ إلَى هذَا التّشرْذُمِ ؟
ألستَ أنتَ منْ رمّلَ أباكَ وَيتَّمَ إِخْوتكَ؟
لِماذا تستغْربُ الدّخانَ وأنتَ منْ أشعلَ النّيرانَ ؟
كنْ مَعي يا رَبِّي .
هلْ أَتْرُكُ لهَا إخْوتي تفعلُ بهمْ مَا تُريدُ وأفرُّ بجِلْدي، أمْ أُرابطُ بالبيتِ أَحْميهمْ منْ بَطشهَا إنْ أَقْدَمَتْ عَلى البطشِ بهمْ؟
تَذَكَّرَتُ الْحِكَايَاتِ التِي يتداولُها النَّاسُ عَنْ زَوْجَةِ الْأَبِ وَلَمْ تُسْعِفْنِي ذَاكِرَتي بِوَاحِدَةٍ كَانَتْ لِطَيفَةً مَعَ أَبْنَاءِ زَوْجِهَا، فَازْدَادَ هَلَعِي وَتَذَكَّرْتُ
أَنَّ عَدَدَنَا مَهُولٌ وَأَيْقَنَتُ أَنَّ زَوْجَةَ أَبِي الْقَادِمَةَ لَنْ

يُمْكِنَهَا أَنْ تَكونَ لَطِيفَةً مَعَنَا وَأَنَّ الْمَعَارِكَ ستنشبّ حَتْمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا يَوْمَ تُصبحُ أُمًّا وَأَنَّ أَبِي الْمِسْكِينَ سَيُصْبِحُ بَيْنَ نَارَيْنِ، نَارِ زَوْجَتِهِ الْجَدِيدَةِ وأبنائه السِّتَّةِ وَابنَه الْبِكْرِ الَّذِي سَيُمَثِّلُ حُضُورُهُ فِي الْبَيْتِ إِزْعَاجًا مُسْتَمِرًّا وَخَطَرًا مُحْدِقًا.

كُنْ مَعَ أَبِي يَا رَبِّي واجعلْه يَعْدِلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ واجعلْه يَعَدِلُ قَلِيلاً بَيْنَنا وَبَيْنَ أَبْنَائِه الْقَادِمِينَ.

اُنْظُرْ مَاذَا فَعَلَتْ بِإِخْوَتِكَ يَا عُلُوان.

هَا أَنْتَ تَصْطَدِمُ بِمَا لَمْ تَقْرَأْ لَهُ يَوْمًا حِسَابًا.

هَا أَنْتَ تُوَاجِهُ زَوْجَةَ أَبٍ سَتَأْخُذُ بِعَقْلِ أَبِيكَ وَتُلْهِيهِ عَنْكَ وَعَنْ هَؤُلَاءِ الْيَتَامَى السِّتَّة.

تَزَاحَمَتِ الْأَسْئِلَةُ فِي رَأْسِي دُونَ أَنْ أَجِدَ لِأَيٍّ مِنْهَا جَوَابًا.

أَسْئِلَةٌ كَثِيرَةٌ.

أَسْئِلَةٌ مُوجِعَةٌ.

أَسْئِلَةٌ كُنْتُ فِي غِنًى عَنْهَا.
وَلَكِنَّنِي مُجْبَرٌ عَلَى أَنْ أَجِدَ بَعْضَ الْأَجْوِبَةِ.
وَلَكِنَّنِي مُجْبَرٌ عَلَى أَنْ أَخْتَارَ بَيْنَ الْبَقَاءِ وَبَيْنَ الْفِرَارِ.
إِنْ بَقِيتُ حَمَيْتُ إِخْوَتِي وَرُبَّمَا حَمَيْتُ أَبِي، وَإِنْ فَرَرْتُ أَنْقَذْتُ أَبِي مَنْ حَرَجِ وُجُودِي مَعَهُ فِي نَفْسِ الْبَيْتِ وَأَنَا الْمُتَّهَمُ بِالْانْحِرَافِ.
كُنْتُ هَكَذَا، أَفكّرُ فِي مَا سَأَفْعَلُهُ وَاقِفًا بَيْنَ نَارَيْنِ، نَارِ الْبَقَاءِ وَنَارِ الرَّحِيلِ، لاَ أَدْرِي إِنْ بَقِيتُ كَيْفَ سَأَبْقَى وَإِنْ رَحَلْتُ إِلَى أَيْنَ سَأَقْصِدُ.
كُنْتُ هَكَذَا أَتَلَظَّى حِينَ لَمَحْتُ كَهْلًا عَلَى أَعْتَابَ السِّتِّيْنَ يَدْخُلُ وَيَتَّجِهُ مُبَاشرةً إِلَى رُكْنٍ فِي الْمَقْهَى فَيَنْحَنِي عَلَى فَتًى يَبْدُو فِي مثلِ عُمْرِي أَوْ أصغرَ بقليلٍ ويَدُسُّ فِي يده شَيْئًا لَمْ أَتبيَّنْهُ وَيأْخُذُ مِنْهُ شَيْئًا كَالْأَوْرَاقِ النَّقْدِيَّةِ يَدُسُّهُ فِي جَيْبِهِ وَيَنْصَرِفُ.
طَفَا عَلَى سَطْحِ ذَاكِرَتِي مَشْهَدُ
سِيجَارَتِي الَتِي أَهْدَانِيهِا وَاحِدٌ قَال لِي "أَنَا مُنْذُ الْيَوْمِ

أَخُوكَ"، وَتَحَرَّكَتْ مُتَتَالِيَةً أَمَامِي كُلَّ الْأَحْدَاثِ التي جَرَتْ لِي بَعْدَ تِلْكَ السِّيجَارَةِ الْمَلْعُونَةِ مِنْ سَهَرٍ وَاخْتِلاَسٍ وَدُوَارٍ فِي الرَّأْسِ وَاِقْتِيَادٍ إِلَى مَرْكَزِ أَمِنٍ وَمَحْكَمَةٍ وَحَبْسٍ وَعِلاَجٍ وَأُمٍّ تَمُوتُ غَيْظًا وَأَبٍ يَتَرَمَّلُ وإِخْوةٍ يَتِيَتَّمون وسُمْعةٍ اِنْحَدَرَتْ إِلَى الْحَضِيضِ وَزَوْجَةِ أَبٍ قَادِمَةٍ.

لَمْحَتُهُ يَسْتَلُّ مِنْ جَيْبِهِ لُفَافَةً وَيُشْعِلُهَا فتَرَكْتُ مَكَانِي وَاقْتَرَبْتُ مِنْهُ.

اسْتَأْذَنْتُ فِي الْجُلُوسِ إِلَى جِوَارِهِ فَلَمْ يُمَانِعْ.

قُلْتُ لَهُ:

- أنا وَحِيدٌ هُنَاكَ وَأَنْتَ وَحِيدُ هُنَا، اسْتَلْطَفْتُكَ فَجِئْتُ أُقَاسِمُكَ طَاوِلَتَكَ.

- تَفَضَّلْ صَدِيقِي، قَالَ كَأَنَّهُ يَعرفُني مُنْذُ زَمَنٍ.

وَتَعَارَفْنَا.

مَدَّ إليّ مِنْ عُلْبَةِ سَجَائِرِهِ الْعَادِيَّةِ وَاحِدَةً فَأَخَذْتُهَا بَيْنَ أَصَابِعِي ِوَانْتَهَزتُ الْفُرْصَةَ لِأَبْدَأَ مَعَهُ الْحَديثَ:

- هَا أَنَا أتناولُ سِيجَارَتَكَ أَخْذًا بِخَاطِرِكَ وَاحْتِرَامًا لِصَدَاقَتِنَا الْجَدِيدَةِ، وَلَكِنِّي لنْ أُدَخِّنَهَا.

ضَحِكَ هَازِئًا.

- التَّدْخِينُ مُتْعَةٌ.

التَّدْخِينُ رُجُولَةٌ.

التَّدْخِينُ مِفْتَاحُ مَا يَنْغَلِقُ فِي وُجُوهِنَا مِنْ مُشَكِلاتٍ.

خُذْ نَفَسًا مِنْ سِيجَارَتِي هَذِهِ وَسَتَرَى.

وَمَدَّهَا إليَّ.

ضَحِكْتُ أَنَا أَيْضًا هَازِئًا وَقُلْتُ:

- لاَ هَذَا وَلاَ ذَاكَ.

أَنَا جَرّبْتُهُ وَأَنَا أَعْني مَا أَقُولُ.

وَرَوَيْتُ لَهُ حِكَايَتي مَعَ السَّجَائِرِ مِنْ أَوَّلَ وَاحِدَةٍ اِسْتَرَقْتُهَا مِنْ أَبِي إِلَى آخِرِ وَاحِدَةٍ مَضغْتُهُا وَابْتَلَعْتُهَا يَوْمَ هَجَمَتْ عَلَيْنَا دَوْرِيَّةٌ أَمْنِيَّةٌ وَاقْتَادَتْنَا إِلَى الْمَرْكَزِ.

حَدَّثْتُهُ عَنْ مَوْتِ أُمِّي حَسْرَةً بِسَبَبِي وَحَدَّثْتُهُ عَنْ زَوَاجِ أَبِي الْقَادِمِ...

حَدَّثْتُهُ عَنْ هَوَانِي وَضَيَاعِي وَعَنْ إِخْوَتِي الَّذِينَ سَيُصِبحُونَ كُرَةَ تتلاقفُها الأيادي وَالْأَرْجُلُ.

كَانَ يُنْصِتُ إِلَيَّ مُنْدَهِشًا مَذْهُولاً وَكَانَ بِيدِيْهِ كَالارْتعاشِ.

سَأَلْتُهُ لَمَّا أَيْقَنْتُ أَنَّهُ لَنْ يَفِرَّ مَنْ أَسْئِلَتِي.

- مُنْذُ مَتَى وَأَنْتَ تَتَعَاطَى هَذَا الدَّاءَ؟

- مُنْذُ حَوَالَيْ شَهْرٍ.

نَهَضْتُ وَقَبَّلْتُهُ وَأَنَا أَقُولُ:

- هِي مُدَّةٌ قَصِيرَةٌ.

تَسْتَطِيعُ الْآنَ أَنْ تَجْتَنِبَ مَرَاكِزَ الْأَمْنِ وَالْمَحَاكِمِ والإصلاحيّات وَمَرَاكِزِ الْعِلاَجِ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَعَالَجَ بِنَفْسِكَ. لاَ حَاجَةَ لَكَ إِلَى حِصَصِ الأخصّائي النَّفْسِيّ وَلاَ إِلَى التَّحَادُثِ مَعَ

الأخِصّائيِّ الاجتماعيِّ وَلَنْ يَنْتَبِهَ أحَدٌ إِلَى أَنَّكَ كُنْتَ تَتَعَاطَى هَذَا الْوَبَاء.

عَالِجَ نَفْسكَ بِنَفْسِكَ.

كُنْ طَبِيبَ نَفْسِكَ.

أَقْسِمْ بِمَنْ تُحِبُّ،

بِاللّهِ، بِرَأْسِ أُمِّكَ، بِرَأْسِ أَبِيكَ، بِرَأْسِ صَدِيقَتِكَ إِنْ كَانَتْ لَكَ صَدِيقَةٌ، أَنَّ تُقْلِعَ، وَسَتُقْلِعُ.

هَا أَنَا أَمَامَكَ يَا صَدِيقِي مِثَالٌ لِلفَتَى الَّذِي انْحَرَفَ فَضَيَّعَ بِانْحِرَافِهِ دِرَاسَتَهُ وَأُمَّهُ وَأَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَسُمعَتَهُ وَصِحّتَهُ. لَا شَيْءَ يَدْعُونِي إِلَى المُبَالَغَةِ وَلَا شَيْءَ يَدْعُونِي إِلَى نُصْحِكَ سِوَى إِصْرَارِي عَلَى أَلَّا تُكَرِّرَنِي وَأَلّا أَرَى وَاحِدًا آخَرَ يَسْقُطُ. أَنْتَ الآنَ بَيْنَ سَبِيلَيْنِ، النُّهُوضِ أَوْ السُّقُوطِ، النَّجَاحِ أَوْ الفَشَلِ، الصِّحَّةِ أَوْ المَرَضِ، الحَيَاةِ أَوْ المَوْتِ، فَاتَّخِذْ السَّبِيلَ الَّذِي تَرَاهُ مُنَاسِبًا يَا صَدِيقِي.

دَاهَمَتْهُ نَوْبَةُ سُعَالٍ حَادٍّ فَأَسْرَعْتُ أَجْلِبُ لَهُ قَارُورَةَ مَاءٍ وَأَنَا أقولُ لهُ:

- هَذِهِ إِحْدَى العَلَامَاتِ، بَدَأَ الإِرْهَاقُ يَتَسَلَّلُ إِلَى رِئَتَيْكَ... شَرِبَ وَأَطْرَقَ وَظلَّ بُرْهَةً مُطْرِقًا.

أحسَّ الفتَى صِدْقِي وَرَأيتُ وَجْهَهُ يَرْبَدُّ قَلِيلاً.

هُوَ الآنَ بَيْنَ اللَّذَّةِ الَّتِي تُوَفِّرُهَا لَهُ سَجَائِرُهِ وَبَيْنَ المِثَالِ الحَيِّ المَاثِلِ أَمَامَهُ بِخَيْبَتِهِ وَانْكِسَارِهِ وَيُتْمِهِ وَهَوَانِهِ..

هُوَ الآنَ بَيْنَ كَلَامِ المُرَوِّجِينَ وَأَصْدِقَاءِ السُّوءِ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ لَهُ المُخَدِّرَاتِ وَيُقْنِعُونَهُ أَنَّهَا سَتَجْعَلُهُ رَجُلًا سَعِيدًا قَوِيًّا لاَ يَقِفُ أَمَامَهُ عَائِقٌ، وَبَيْنَ كَلَامِي الَّذِي لَخَّصَ لَهُ تَجْرِبَةً مُوجِعَةً بَدَأَتْ بِسِيجَارَةٍ عَادِيَّةٍ وَانْتَهَتْ إِلَى المَرَضِ وَإِلَى السِّجْنِ.. نَظَرَ إِلَيَّ فَمَدَدْتُ يَدي إِلَيْهِ وَأَنَا أَقُولُ:

- هَاتِ مَا فِي جَيْبِكَ مِنْ سَجَائِر وَرُدَّ إليّ الآنَ جَمِيلي. سَاعِدْنِي مِثْلَمَا سَاعَدْتُكَ.

تَسَلَّلَتْ يَدُهُ إِلَى جَيْبِهِ فَأَخْرَجَتْ مَا فِيهِ وَوَضَعَتْهُ فِي كَفِّي. رَفَسْتُ تِلْكَ السَّجَائِرَ بَيْنَ أَصَابِعِي وَرَمَيْتُهَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ:

- دُسْ عَلَيْهَا بِعُنْفٍ..

دَاسَتْ قَدَماهُ عَلَى سَجَائِرِهِ الأَخِيرَةِ، وَقَالَ لِي:

- كَيْفَ أُسَاعِدُكَ؟

رَوَيْتُ لَهُ حِكَايَةَ زَوْجَةِ أَبِي القَادِمَةِ طَالِبًا مِنْهُ المَشْوَرَةَ.

تَحَدَّثْنَا طَوِيلًا وَلَمْ نَفْتَرِقْ إِلَّا وَنَحْنُ صَدِيقَانِ.

10

كُنْتُ أَسِيرُ فِي اتِّجَاهِ مَتْجَرِ وَالِدِي عِنْدَمَا تَوَقَّفَتْ سَيَّارَةٌ أَعْرِفُهَا وَأَعْرِفُ سَائِقَهَا.. هَذِهِ هِيَ السَّيَّارَةُ نَفْسُهَا الَّتِي جَاءَتْ بِي مِنْ مَرْكَزِ العِلَاجِ بَعْدَ أَنْ مَاتَتْ أُمِّي وَقَرَّرَ مُدِيرُ المَرْكَزِ تَمْتِيعِي بالسّرَاحِ لِأَتَدَاوَى بَيْنَ أَفْرَادِ العَائِلَةِ.. أَحْسَسْتُ بِمُجَرَّدِ رُؤْيَتِهَا بِالِانْقِبَاضِ.. خَفَقَ قَلْبِي وَارْتَعَشَ فُؤَادِي وَدَارَ رَأْسِي وَارْتَجَّتْ قَدَمَايَ.. قلتُ: سَيُعِيدُونَنِي إِلَى حَيْثُ كُنْتُ.. وَقُلْتُ: سَيُخْضِعُونَنِي لِتَحَالِيلَ جَدِيدَةٍ وَلِعِلَاجٍ جَدِيدٍ.. حَاوَلْتُ أَنْ أَتَمَاسَكَ وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ السَّيَّارَةِ الَّتِي خَفَّفَتْ مِنْ سُرْعتِها وَتَوَقَّفَتْ أَمَامَ المَتْجَرِ.. سَلَّمْتُ بِأَدَبٍ عَلَى السَّائِقِ وَعَلَى المُوَظَّفِ الَّذِي يُرَافِقُهُ وَقُلْتُ لَهُمَا:

- تَفَضَّلا. أَنْتُمَا فِي ضِيَافَتِنَا.
- مِنْ حُسنِ الحظِّ أَنّكَ هنَا، قالاَ معًا.

- أرجو أن يكونَ الأمرُ خيرًا.

- خيرًا طبعًا. لاَ تقلقْ أرجوكَ، لاَ شيءَ يدْعو للقلقِ، نريدُ أنْ نتحدّثَ معكَ بحضورِ أبيكَ.

بدأَ خوفِي يَخِفُّ.

اتّجَهْنا نحوَ المتجرِ وقدّمتُ الثّلاثةَ لبعضِهِمْ بعضًا.

رأيتُ وجهَ أبِي يربدُّ ورأيتُ الحيرةَ ترْتسِمُ علَى مَلامحِهِ.

قال الموظّفُ:

- لا شيءَ في زيارَتِنَا يدْعو إلَى القلقِ، فاطْمئنَّا.

كلُّ ما فِي الأمرِ أنَّ إحْدَى القنواتِ التِّلفزيَّةِ اقترحتْ عليْنَا أنْ تصوّرَ برنامَجًا مُتكامِلاً عنْ نُزَلاَءِ مَرْكَزِنَا، كيفَ كانُوا وكيْف أَصْبحُوا وكيفَ تَعاطيْنَا معهُمْ وكيفَ تعاطَوْا فِيمَا بينهمْ وكيفَ يقْضونَ يوْمَهُمْ داخلَ المركزِ وكيفَ يَلْتقونَ زُوّارهُمْ... جِئْنَا لنقترحَ عليكمْ أنْ يكونَ عُلوانُ منْ بينِ المُسْتجوَبينَ.

سألَ أبي وقدْ خفَّ اضطرابُهُ وهدأَ خوفُهُ :

- وماذَا تَرى أنتَ يَا أُستاذُ؟

- لاَ أَرى مانِعًا مِنَ المُشَارَكَةِ فِي البَرْنَامَجِ. سَيَكُونُ ذَلِكَ مُفِيدًا لِلمُشَاهِدِينَ، وَسَيَشْعُرُ كُلُّ مِنْ سَاهَمَ فِيهِ وَقَدَّمَ شَهَادَتَهُ أَنَّهُ تَجَاوَزَ المِحْنَةَ إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهُ أَصْبَحَ يَنْصَحُ النَّاسَ بِالابْتِعَادِ عَنِ المُخَدِّرَاتِ.

- لا مانعَ لديَّ، قالَ أبي.

اِلْتَفَتَ إِلَيَّ المُوَظَّفُ المُحْتَرَمُ وَسَأَلَنِي:

- وَأَنْتَ يَا عُلْوانُ, مَاذَا تَرَى ؟

تَرَدَّدْتُ وَهَمْهَمْتُ وَلَزِمْتُ الصَّمْتَ قَلِيلًا ، ثُمَّ نَطَقْتُ:

- إِذَا كُنْتُ سَأُقَدِّمُ لِلتَّلْفَزَةِ شَهَادَةً حَيَّةً وَسَأَرْوِي تَجْرِبَتِي، فَمَاذَا سَتُقَدِّمُ لِي التَّلْفَزَةُ مُقَابِلَ ذَلِكَ؟

لَمْ يَتَرَدَّدْ المُوَظَّفُ فِي إِجَابَتِي:

- لَكَ أَنْ تَفْرِضَ شُرُوطَكَ عَلَى القَنَاةِ.

وَقَالَ السَّائِقُ:

- مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَطْلُبَ مُقَابِلًا عَنْ شَهَادَتِكَ.

- اِتَّفَقْنَا.

- ستهاتفك القَنَاةُ وَسَتُحَدِّدُ مَعَكَ مَوْعِدًا لِلتَّصْوِيرِ، فَكُنْ مُسْتَعِدًّا.

وَفِي حِينِ نَهَضَ الزَّائِرَانِ وَاتّجهَا نَحْوَ سَيَّارَتِهِمَا، رَمَقَنِي أَبِي بِنَظْرَةٍ فَهِمْتُ مِنْهَا أَنَّ اشْتِرَاطِي مُقَابِلًا عَنْ شَهَادَتِي مَلَأَهُ انْشِرَاحًا.

تَرَكْتُ أَبِي يَنْعَمُ بِانْشِرَاحِهِ، وَيَمّمتُ وَجْهِي شَطْرَ مَقْهَايَ الَّتِي أَصْبَحَتْ متنفّسي الوَحِيدَ. كَانَ صَاحِبِي الَّذِي أَخَذَ بِنَصِيحَتِي وَأَقْلَعَ عَنْ السَّجَائِرِ المُخَدِّرَةِ فِي انْتِظَارِي.

- نَهَارُك طَيِّبٌ.

- نَهَارُكَ أَطْيَبُ. اِسْمَعْ، سَأَظْهَرُ عَلَى التَّلْفَزَةِ قَرِيبًا.

- عَلَى التَّلْفَزَةِ؟ كَيْفَ؟

- سَأُشَارِكُ فِي بَرْنَامَجٍ ضَخْمٍ تُعِدُّهُ إِحْدَى القَنَوَاتِ التَّلْفَزِيَّةِ بِشَهَادَتِي عَنْ تَجْرِبَتِي مَعَ المُخَدِّرَاتِ كَيْفَ

بَدَأْتُهَا وَأَيْنَ قَادَتْنِي وَكَيْفَ حَطَّمْتِنِي وَمَا عَانَيْتُ لِأَتَخَلَّصَ مِنْ سُمُومِهَا..

- هَذَا رَائِعٌ، سَيُتِيحُ لَكَ ذَلِكَ أَنْ تُخَاطِبَ النَّاسَ جَمِيعًا عِوَضَ أَنْ تُكَلِّمَ كُلًّا بِمُفْرَدِهِ.

فَجْأَةً، قَفَزَ إِلَى ذِهْنِي سُؤَالٌ لَمْ أَتَرَدَّدْ فِي إِلْقَائِهِ عَلَى صَاحِبِي:

- هَلْ تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ مَعِي؟ هَلْ تُحِبُّ أَنْ تُدْلِيَ بِشَهَادَتِكَ؟

- وَلَكِنَّنِي لَمْ أَكُنْ نَزِيلًا بِمَرْكَزِ العِلَاجِ.

- سَأَشْتَرِطُ عَلَى القَنَاةِ أَنْ يُسَجِّلُوا شَهَادَتَكَ، تَحَدَّثْ عَنْ تَجْرِبَتِكَ مُنْذُ بَدَأْتَ إِلَى أَنْ تَعَارَفْنَا وَتَحَاوَرْنَا وَاقْتَنَعْتَ بِمُقَاطَعَةِ تِلْكَ السَّجَائِرِ اللَّعِينَةِ.

- سَيَرَانِي أَهْلِي وَأَصْحَابِي.

- لَنْ يَرَاكَ أَحَدٌ وَسَيَكُونُ وَجْهُكَ مُغَطًّى وَسَيُغَيِّرُونَ صَوْتَكَ.

- إِذَنْ، اِتَّفَقْنَا.

- لَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَجّانًا، دَعْنِي أَتَصَرَّفُ.

- لَكَ مَا تُرِيدُ صَدِيقِي.

بِتُّ اللَّيْلَ أَنْسُجُ خُيُوطَ الشَّهَادَةِ الَّتِي سَأُقَدِّمُهَا. قَرَّرْتُ أَنْ أَجْعَلَهَا تَخْرُجُ لِلنَّاسِ دُونَ مَسَاحِيقَ وَأَنْ لاَ أُخْفِيَ مِنْهَا شَيْئًا.. بَتُّ أُفَكِّرُ وَأَسْتَعْرِضُ التَّفَاصِيلَ حَتَّى لَا أَتْرُكَ شَيْئًا لِلصُّدْفَةِ. وَلَمْ أَسْلِمْ نَفْسِي إِلَى النَّوْمِ إِلَّا وَكُلُّ المَشَاهِدِ وَاضِحَةٌ مُفَصَّلَةٌ أَمَامَ عَيْنَيَّ.

وَلَمْ تَتَأَخَّرْ القَنَاةُ كَثِيرًا، إِذ اتّصَلَتْ بِي كُلُّ مِنْ مخرجةِ البَرْنَامَج وَمُقَدَّمَتِهِ عَبْرَ الهَاتِفِ ثُمَّ الْتَقَيْنَا فِي البَيْتِ.. قُلْتُ للمخرجة:

- سَأَكُونُ وَاضِحًا: أَنَا سَأُقَدِّمُ شَهَادةً حَيَّةً وَلَا مَانِعَ لَدَيَّ مَنْ أَنْ تَتْرُكُوا وَجْهِي مَكْشُوفًا، وَلَا مَانِعَ لَدَيَّ مَنْ أَنْ يَظَلَّ صَوْتِي كَمَا هُوَ دُونَ تَغْيِيرٍ، فَمَاذَا سَأَنَالُ مُقَابِلَ شَهَادَتِي؟

لَمْ تَسْتَغْرِبْ المخرجة طَلَبِي، وَقَالَتْ لِي:

- مَا هِيَ المُكَافَأَةُ الَّتِي تُرْضِيكِ؟

- مَصْدَرُ رزَقٍ أَعِيشُ مِنْهُ وَأُسَاعِدُ بِهِ إِخْوَتِي السِّتَّةَ اليَتَامَى وَأَبْنِي بِهِ أَحْلَامِي الَّتِي ضَيَّعَهَا تَعَاطِيَّ المُبَكِّرُ لِلمُخَدِّرَاتِ.

تَرَكَتْ المخرجة طَلَبِي مُعَلَّقًا وَكَوَّنَتْ رَقْمًا وَابْتَعَدَتْ قَلِيلاً ثُمَّ لَمَّا أَنْهَتْ مُكَالَمَتَهَا عَادَتْ إِلَيَّ.

- لا مانعَ عُلْوَانُ، سَيَكُونُ لَكَ مَا تُرِيدُ، إِدَارَةُ القَنَاةِ وَافَقَتْ عَلَى أَنْ تَفْتَتِحَ لَكَ مَتْجَرًا لِلمَوَادِّ الغِذَائِيَّةِ فِي المَكَانِ الَّذِي تُرِيدُ.

رَقَصَ قَلْبِي فَرَحًا وَزَغْرَدَ فِي عُرُوقِي دَمِي.

- لديّ شَرْطٌ آخَرُ.

- أنا أنقذْتُ صديقاً لي منَ الاستمرارِ في تدخينِ السّجائرِ المُخدّرةِ، أُرِيدُ أَنْ تَضُمُّوهُ إِلَى قَائِمَةِ الْمُتَدَخِّلِينَ وَأَنْ تُكافؤوه.

- هذا رَائِعٌ، هَذَا جَمِيلٌ، وَارْتَمَتْ عَلَيّ وَقَبَّلَتْنِي.

قَدَّمَتْ لِي مُقدّمَةُ البَرْنَامَجِ مَجْمُوعَةَ أَسْئِلَةٍ طَلَبَتْ مِنِّي أَنْ أَسْتَعِدَّ لِلإِجَابَةِ عَنْهَا، وَكَتَبْتْ أَسْئِلَةَ أُخْرَى طَلَبْتْ

مِنِّي أَنْ أُسَاعِدَ صَاحِبِي عَلَى الاِسْتِعْدَادِ لَهَا، وَاِتَّفَقْنَا حَولَ مَرَاحِلِ التَّصْوِيرِ وَأَمْكِنَتِهِ وحَوْلَ العَقْدِ الَّذِي سَأُمْضِيهِ مَعَ القَنَاةِ وَالَّذِي سَأَحْصُلُ بِمُقْتَضَاهُ عَلَى مَتْجَرٍ أَمْتَلِكُهُ بِمُفْرَدِي.

قَالَتْ إِنَّ التَّصْوِيرَ قَدْ يَسْتَغْرِقُ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ وَإِنَّ تزويدَ المَحَلِّ بِالبِضَاعَةِ سَيَكُونُ بَعْدَ الانْتِهَاءِ مِن التَّصْوِيرِ مُبَاشَرَةً.. اِتَّفَقْنَا حَوْلَ الخُطُوطِ العَرِيضَةِ وحوْلَ التَّفَاصِيلِ الدَّقِيقَةِ وَافْتَرَقْنَا عَلَى أَمَلِ أَنْ يَبْدَأَ التَّصْوِيرُ قَرِيبًا.. ابْتَهَجَ أَبِي كَثِيرًا لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ اتِّفَاقُنَا، وَبَدَا وَاضِحًا أَنَّ هَذِهِ الفُرْصَةَ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَيْنَا كَمَائِدَةٍ مِنْ السَّمَاءِ سَتُسَرِّعُ زَوَاجَهُ وَسَتُزِيحُ كَثِيرًا مِنْ العَوَائِقِ وَسَتُخَفِّفُ كَثِيرًا مِنْ الأَحْزَانِ.

11

أَقْنعني جَمَاعَةُ البَرْنَامَجِ بِتَغْطِيَةِ وَجْهِي وَبِضَرُورَةِ إِدْخَالِ تَغْيِيرٍ عَلَى صَوْتِي مُعَلِّلِيْنِ ذَلِكَ بِأَنَّ المُهِمَّ بالنّسبة إِلَى بَرْنَامَجِهِمْ وَقَنَاتِهِمْ أَنْ يَطَّلِعَ المُشَاهِدُونَ عَلَى التَّجْرِبَةِ بِقِطعِ النّظر عَمَّنْ خَاضَهَا.. تَحَدَّثْتُ إِلَيْهِمْ عَنْ حَيَاتِي قَبْلَ أَنْ أُطْرُدَ مِنْ المَعْهَدِ وَكَيْفَ كُنْتُ سَعِيدًا بَيْنَ أُمِّي وَأَبِي وَإِخْوَتِي ثُمَّ وَصَلْتُ بِهِمْ إِلَى ذَلِكَ اليَوْم المَلْعُونِ، يَوْمَ اِشْتَدَّ بِي الغَضَبُ وَاعْتَدَيْتُ بِالعُنْفِ عَلَى أُسْتَاذِي فَطُرِدْتُ مِنَ المَعْهَدِ طَرْدًا لاَ رَجْعَةَ فيهِ. صَوَّرُونِي بَاكِيًا وَحَزِينًا ثُمَّ نَقَلُونِي إِلَى مَقْهًى اتَّفَقُوا مَعَ صَاحِبِهِ مُسْبَقًا وَصَوّرُونِي أَتَنَاوَلُ سِيجَارَةً مِنْ وَاحِدٍ زَيَّنَ لِي تَدْخِينَ المُخَدِّرَاتِ زاعما أَنَّهَا سَتَجْعَلُ مِنِّي رَجُلاً مِقْدامًا وَشَخْصًا سَعِيدًا، ثُمَّ صَوَّرُونِي وَسَطَ

كَوْكَبَةٍ مِنْ الشُّبَّانِ نَمْتَصُّ الدُّخَانَ ونلهُو وَنَتَحَدَّثُ عَنْ مَصَادِرِ تَمْوِيلِنَا.. قُلْتُ لَهُمْ مُبْتَهِجًا:

- أَنَا أَخْتَلِسُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ مَتْجَرِ وَالِدِي مَا يَكْفِينِي لِمَصَارِيفِ سَهَرِي مَعَكُمْ.

وَقَالَ وَاحِدُ آخَر:

- أمّا أَنَا فَبعتُ مُنْذُ أَيَّامٍ قِطْعَةً مِنْ مصوغِ أُمِّي وَقَدْ أُضْطَرُّ إِلَى اختِلَاسِ قِطْعَة أُخْرَى لِأَبِيعَهَا بِأَيِّ ثَمَنٍ..

وَقَالَ ثَالِثٌ:

- أَنَا أَسْرِقُ كُلُّ مَا يُمْكِنُنِي سَرِقَتُهُ وَأَخْتَطِفُ كُلَّ مَا يُمْكِنُنِي اِخْتِطَافُهُ.

وقالَ رابعٌ:

- أمّا أنا، فلا أسرق ولا أخطفُ ولكنّي مَضطرٌّ إلى العَمَلِ في حظائرِ البناءِ منَ الصّباحِ إلى المساءِ لأوفّرَ ما يحتاجُهُ رأسي كلّ ليلةٍ.

وَقَالَ وَاحِدٌ آخَرُ:

- أَنَا أَسْرِقُ خَطِيبَتِي، أفتعلُ أَمَامَهَا حَاجَتِي إِلَى المَالِ فَتُلَبِّي لِي مَا أُرِيدُ دُونَ تَرَدُّدٍ.

فَاجَأَنَا رِجَالُ الأَمْنِ وَنَحْنُ غَارِقُونَ فِي حِكَايَاتِنَا وَمُغَامَرَاتِنَا المُخْجِلَةِ. أَحَاطُوا بِنَا حَتَّى لَا يُفَكِّرَ أَحَدٌ فِي الفِرَارِ، وَحَشَرُونَا فِي سَيَّارَاتِهِمْ وَأَخَذُونَا إِلَى مَرْكَزِ الأَمْنِ. صَوّرونَا نَبْكِي وَنُوَلْوِلُ وَنَسْتَغِيثُ وَنَطْلُبُ الرَّحْمَةَ وَنُعْلِنُ التَّوْبَةَ وَنَعِدُ بِالإِقْلَاعِ حَتَّى عَنْ الشَّايِ وَالقَهْوَةِ، وَلَكِنَّ صُرَاخَنَا وَعَوِيلَنا لَمْ يؤت أُكُلًا، إِذْ حَقَّقُوا مَعَنَا وَأَخَذُوا عَيِّنَاتٍ مِنْ دِمَائِنَا المُلَوَّثَةِ ثُمَّ عَرَضُونَا عَلَى أَنْظَارِ المَحْكَمَةِ.

قَالَتْ لِي مُقَدَّمَةُ البَرْنَامَجِ:

- مَاذَا تَمَنَّيْتَ لَحَظَتَهَا، لَحْظَةَ مُثُولِكَ أَمَامَ القَاضِي؟

لَمْ أتردّد، قُلْتُ لَهَا:

- تَمَنَّيْتُ شَيْئًا وَاحِدًا: أَنْ تَنْشَقَّ الأَرْضُ وتَبْتَلِعَنِي.

نَطَقَ الرَّئِيسُ بِالحُكْمِ فَسُمِعَ عَوِيلُ الأُمَّهَاتِ يَتَرَدَّدُ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ المُحْكَمَةِ وَتَحَوَّلَ المَكَانُ إِلَى جَنَازَةٍ كُبْرَى.. وَضَعَ لِي أَحَدُهُمْ أَصْفَادًا فِي يَدَيَّ وَدَفَعَنِي بِلَا شَفَقَةٍ نَحْوَ سَيَّارَةٍ، دَفَعَنِي كَمَا يُدْفَعُ الخَرُوفُ نَحْوَ الزَّرِيبَةِ. وَانْطَلَقَتْ تِلْكَ السَّيَّارَةُ تَعْوِي. صَوَّرَتْ الكَامِيرَا نِسَاءً وَرِجَالاً وَاقِفِينَ وَرَاءَهَا يَصِيحُونَ وَيَبْكُونَ وَيَلْطِمُونَ خُدُودَهُمْ، وَصَوَّرَتْنِي دَاخِلَ السَّيَّارَةِ مُحَاطًا بِعَوْنِيْ أَمْنٍ وَمُكَبَّلًا فِي الحَدِيدِ.

- يَكْفِي مَا أَنْجَزْنَاهُ اليَوْمَ، قَالَ جَمَاعَةَ التَّلْفَزَةِ، شُكْرًا لَكَ عُلْوَانُ عَلَى شَجَاعَتِكَ وَصِدْقِكِ، وَغَدًا نَلْتَقِي. وَرَغْمَ أَنَّ مَا قُلْتُهُ وَمَا صَوَّرَتُهُ أَعَادَنِي إِلَى ذِكْرَيَاتٍ أَلِيمَةٍ، إِلَّا أَنَّنِي كُنْتُ مَزْهُوًّا لِأَنَّنِي بِمَا أَفْعَلُهُ أُقَدِّمُ خِدمَةً لِكُلِّ مَنْ سَتُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْ عَالَمِ المُخَدِّرَاتِ، وَأُصَحِّحُ أَفْكَارَ كُلِّ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهَا السَّبِيلُ إِلَى الرُّجُولَةِ وَأَنَّهَا مِفْتَاحُ السَّعَادَةِ.

كُنْتُ مُتْعَبًا فَاكْتَفَيْتُ بِأَنْ تَفَقَّدْتُ إِخْوَتِي ووفّرتُ لِهُمْ مَا يَحْتَاجُونَهُ وَخَلَدْتُ إِلَى النَّوْمِ طَلَبًا لِلرَّاحَةِ وَاِسْتِعْدَادًا لِبَقِيَّةِ البَرْنَامَجِ.. نِمْتُ إِلَى أَوَّلِ المَسَاءِ، وَعِنْدَمَا اسْتَيْقَظْتُ، كَانَ رَأْسِي خَفِيفًا وَكُنْتُ سَعِيدًا.

اتَّجَهْتُ إِلَى مَقْهَايَ حَيْثُ صَاحِبِي فِي انْتِظَارِي لِأَرْوِيَ لَهُ تَفَاصِيلَ يَوْمِي وَأَتَّفِقَ مَعَهُ عَلَى تَفَاصِيلَ مَا بَقِيَ مِنْ البَرْنَامَجِ.. عِنْدَمَا وَضَعْتُ قَدَمِيَّ عَلَى عَتَبَةِ المَقْهَى، لَمَحْتُ صَاحِبِي وَلَمَحَتُ أَمَامَهُ الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ يَبِيعُهُ السَّجَائِرَ. ظَلَلْتُ أُرَاقِبُهُمَا مِنْ زَاوِيَّةٍ خَفِيَّةٍ، وَلَكَمْ فَرِحَتُ وَغَمَرَتْنِي السَّعَادَةُ عِنْدَمَا رَأَيْتُ صَاحِبِي يَقِفُ وَيَدْفَعُهُ وَيَطْرُدُهُ وَيُهَدِّدُ أَن يشتكيَه إِلَى الشُّرْطَةِ إِن هُوَ تَجَرَّأَ وَعَرَضَ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى بِضَاعَتَهُ.. انْتَظَرْتُ خُرُوجَ ذَلِكَ اللَّعِينِ مَدْحُورًا خَائِبًا وَارْتَمَيْتُ عَلَى صَاحِبِي أَحْتَضِنُهُ وَأُقَبِّلُهُ وَأُثْني عَلَى صِدْقِهِ وَشِدَّةِ عَزْمِهِ.. حَدَّثْتُهُ وَنَحْنُ نَرْتَشِفُ قهوتينا عَنْ يَوْمِي كَيْفَ

كَانَ وَسَأَلَنِي عَنْ نَصِيبِهِ مِنْ البَرْنَامَجِ كَيْفَ سَيَكُونُ.

- بِمَاذَا شَعُرْتَ وَأَنْتَ تُوَاجِهُ عَدَسَةَ الكَامِيرَا يَا عُلْوَانُ؟

- دَاخَلَنِي إِحْسَاسٌ بالسّعادة وَشَعَرْتُ أَنّي أُسْهِمُ فِي إِنْقَاذِ مَنْ يُمْكِنُ إِنْقَاذُهُمْ مِمَّنْ تَوَرَّطُوا فِي هَذِهِ التَّجْرِبَةِ اللَّعِينَةِ وَأَحْمي الَّذينِ قَدْ يُسَاقُونَ إِلَيْهَا مِنْ التَّوَرُّطِ فِيهَا. أَنْتَ أَيْضًا سَيَغْمُرُكَ نَفْسُ الإِحْسَاسِ، كُنْ عَلى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ صَدِيقِي.

- مَوْعِدُنَا غَدًا.

- غَدًا مَوْعِدُنَا.

صَبَاحًا، كَانَتْ سَيَّارَةُ القَنَاةِ وَطَاقمُها فِي انْتِظَارِنَا أَمَامَ المَقْهَى. بَدَأْنَا حَلَقَتَنَا الثَّانِيَةَ مِنْ مَرْكَزِ الإِصْلَاحِيَّةِ حَيْثُ صُوِّرْتُ وَأَنَا أُسَاقُ إِلَى مَوْعِدِ الزِّيَارَةِ لِيَرَانِي وَالِدَايَ وَصُوِّرْتُ وَأَنَا أَصْرُخُ مِنْ آلاَمِ رَأْسِي وَصُوِّرْتُ وَاثْنَانِ مِن النُّزَلَاءِ يَشُدَّانِ رَأْسي المَرِيض

بِأَطْرَافِ سِرْوَالِي الَّذِي مَزَّقَاهُ... كُنْتُ فِي الأَثْنَاءِ أُجِيبُ عَنْ أَسْئِلَةِ مُقَدِّمَةِ البَرْنَامَجَ وَأَصِفُ أَحَاسِيسِي وَمَا عَانَيْتُ وَمَا كَابَدْتُ... ثُمَّ مَرَرْنَا إِلَى مَرْكَزِ العِلَاجِ حَيْثُ صُوِّرْتُ أَمَامَهُ وَدَاخِلَهُ، فِي سَرِيرِي وَفِي المَطْعَمِ وَفِي غُرْفَةِ الزِّيَارَاتِ. وَصُوِّرْتُ وَأَنَا أَتَلَقَّى نَبَأَ وَفَاةِ وَالِدَتِي وَصُوِّرْتُ وَأَنَا أَتَلَقَّى الإِسْعَافَاتِ إِثْرَ تَلَقِّي ذَلِكَ الخَبَر وَدُخُولِي فِي نَوْبَةٍ جُنُونِيَّةٍ شَدِيدَةٍ.. ثُمَّ انْتَقَلْنَا إِلَى المَقْبَرَةِ فَوَاجَهْتُ الكَامِيرَا وَأَنَا أَبْكِي أُمِّي وَأَتَأَسَّفُ عَلَى رَحِيلِهَا الَّذِي كُنْتُ السَّبَبَ فِيهِ.

لَمْ أَشْعُرْ أَبَدًا أَنِّي أُمَثِّلُ دَوْرًا. كُنْتُ كَأَنَّنِي أَزُورُ قَبْرَهَا لِلمَرَّةِ الأُولَى وَكُنْتُ أَتَرَحَّمُ عَلَيْهَا كَأَنَّ خَبَرَ مَوتِهَا بَلَغَنِي وَقْتَهَا.. ثُمَّ تَحَدَّثْتُ فِي شَهَادَتِي عَمَّا عَانَيْتَهُ مِنْ احْتِقَارٍ وَمِنْ إِذْلَالٍ وَمَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ مُدِيرُ المَدْرَسَةِ الَّذِي أَطْرَدني وَقَطَعَ رِزْقِي... وَأَخِيرًا، خَتَمْتُ كَلَامِي بِمَا فَعَلْتُهُ مِنْ أَجْلِ إِنْقَاذِ شَابٍّ كَانَ سَيَهْوِي إِلى بِئْرٍ لَا قَرَارَ لَهَا. وَفَسَّحْتُ المَجَالَ لِصَدِيقِي.. اِرْتَبَكَ

صَدِيقِي قَلِيلًا رَغْمَ أَنّ جَمَاعَةَ التَّلْفَزَةِ طَمْأَنُوهُ وَأَكَّدُوا أَنْ لَا أَحَدَ سَيَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ وَلَا أَحَدَ سَيُمَيِّزُ صَوْتَهُ.. قَالُوا لَهُ:

- لاَ تَخْشَ شَيْئًا، لاَ مَصْلَحَةَ لَنَا فِي أَنْ نُقَدِّمَكِ إِلَى المُشَاهِدِينَ، نَحْنُ فَقَطْ نُرِيدُ أَنْ نُقَدِّمَ تَجْرِبَتَكَ عِبْرَةً لِلشُّبَّانِ الَّذِينَ قَدْ تَزِلُّ بِهِمْ القَدَمُ.. قَالُوا ذَلِكَ وَذَكَّرُوهُ بِأَنَّهُ سَيَنَالُ إِثْرَ شَهَادَتِهِ هَدِيَّةً لَائِقَةً.

تَحَدّثَ صَاحِبِي عَنْ سِيجَارَتِهِ الأُولَى وَتَحَدَّثَ عَمَّا يُخَلِّفُهُ تَدْخِينُ المُخَدِّرَاتِ مِنْ لَذَّةٍ قَصِيرَةٍ وَمِنْ مُعَانَاةٍ مَرِيرَةٍ. قَالَ إِنَّ آثَارَهَا تَبْدَأُ فِي الظُّهُورِ بَعْدَ سَاعَاتٍ قَصِيرَة، يَبْدَأُ السُّعَالُ والدّوار وَالقَيْءُ وَالحَرَارَةُ وَالإِغْمَاءُ والرّغبةُ المتأجّجةُ فِي التّدخين مُجَدَّدًا... وَتَحَدَّثَ عَمَّا فَعَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُوَفِّرَ ثَمَنَ تِلْكَ السَّجَائِرِ باهضةِ التّمنِ، وَتَحَدَّثَ عَنْ عَدَمِ اِنْتِبَاهِ أُمِّهِ المُطَلِّقَةِ لِمَا يُعَانِيهِ وَلَامُبَالَاةِ أَبِيهِ المُتَزَوِّجِ حديثاً ثُمَّ شَرَعَ فِي شُكْرِي وَفِي الثَّنَاءِ عَلَيَّ، وَرَوَى لِلتَّلْفَزَةِ كَيْفَ

تَجَرَّأْتُ وَجَلَسْتُ إِلَيْه وَفَاتَحْتُهُ فِي أَمْرِ سَجَائِرِهِ اللَّعِينَةِ وَكَيْفَ لَمْ أُخْفِ عَنْهُ مِنْ تَجْرِبَتِي المَرِيرَةِ شَيْئًا وَكَيْفَ تَوَصَّلْتُ إِلَى إِقْنَاعِهِ بِالإِقْلَاعِ عَنْ تَدْخِينِ المُخَدِّرَاتِ قَبْلَ أَنْ يصبحَ مُدمنًا لا يُفيدُ معه الإقلاعُ، وَأَنْهَى شَهَادَتَهُ بِنَصَائِحَ وَجَّهَهَا إِلَى الشُّبَّانِ حَتَّى لَا يَغْرَقُوا فِي نَفْسِ المُسْتَنْقَعِ، ثُمَّ ارْتَمَى عَلَيَّ يُقَبِّلُنِي وَيَتَرَحَّمُ عَلَى أُمِّي.

أَحَسّ جَمَاعَةُ البَرْنَامَجِ بِانْتِشَاءٍ شَدِيدٍ وَقَالُوا إِنَّ بَرْنَامَجَهُمْ سَيُحَقِّقُ نِسْبَةَ مُشَاهَدَةٍ عَالِيَةٍ وَإِنَّ مَا قُلْنَاهُ وَمَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ سَيَكُونُ خَيْرًا مِنْ دُرُوسٍ كَثِيرَةٍ تُلْقى هُنَا وَهُنَاكَ فَشَكَرُونَا كَثِيرًا. ثُمَّ جَاءَ وَقْتُ المُكَافَآتِ.. نَالَ صَاحِبِي حَاسُوبًا مَحْمُولًا وَنِلْتُ أَنَا هَاتِفًا جَوَّالًا وَأَمْضَيْتُ مَعَهُمْ عَقْدًا يَقْضِي بِتَكَفُّلِ القَنَاةِ بِاكْتِرَاءِ مَحَلٍّ وَدَفْعِ مَعْلُومِ كِرَائِهِ طِيلَةَ عَامٍ كَامِلٍ وَتَجْهِيزِهِ بِكَمِّيَّاتٍ وَافِرَةٍ مِنْ المَوَادِّ الغِذَائِيَّةَ.

بَكَيْتُ فَرَحًا.. أَحْسَسْتُ أَنَّ مُعَانَاتي أَخَذَتْ طَرِيقَهَا إِلَى النِّهَايَةِ.. أَحْسَسْتُ أَنّ أُمِّي فِي قبرِها هُنَاكَ قَدْ

رَضِيَتْ عَنِّي قَلِيلًا.. لَنْ أُصْبِحَ مَا كَانَتْ تُرِيدُ، طَبِيبًا أَوْ مُعَلِّمًا أَوْ أُسْتَاذًا... وَلَكِنَّي تَخَلَّصْتُ مِنْ تَدْخِينِ الْمُخَدِّرَاتِ وَسَأَتَفَرَّغُ لِإِخْوَتِي وَلِلعَمَلِ وَسَأَتْرُكُ لِأَبِي حُرِّيَّةَ بِنَاءِ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ.. نَامِي مُطْمَئِنَّةً أُمِّي.. سَأَدْعُو لَكِ بالرّحمة وَسَأَتَصَدَّقُ عَلَيْكَ وَسَأَعْتَنِي بِإِخْوَتِي كَمَا كُنْتِ تَعْتَنِينَ بِهِمْ.. أَعْتَرِفُ أَنَّنِي كُنْتُ غَبِيًّا.. أَعْتَرِفُ أَنَّنِي كُنْتُ بِلا عَقْلٍ.. أَعْتَرِفُ أَنَّ الانْدِفَاعَ لَا يُورِثُ غَيْرَ النَّدَمِ، وَأَنَّ اللَّذَّاتِ القَصِيرَةَ لَا تُخَلِّفُ غَيْرَ خَيْبَاتٍ مَرِيرَةٍ.